اقرأ

رشاد دارغوث

في بطون الليالي

في بطون الليالي

رشاد دارغوث

في بطون الليالي

اقرأ ١٣٠
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٣٠ – أول أكتوبر ١٩٥٣



مقدمة

للدكتور طه حسين

سيدى الأستاذ العزيز

أتأذن لى بأن أشكر لك أجمل الشكر هذه الساعات المتعة التى أنفقتها معك، قارئاً كتابيك « الحاج بحبح » و « خطيئة الشيخ » ؟ فقد وجدت فى هذه القراءة من الروعة الساذجة ما يوجد فى الكتب الممتازة حقاً . وجدت هذا التصوير اليسير الساذج للبيئة الإسلامية فى لبنان ، فتبينت خصالا مشتركة بين هذه البيئة وبيئتنا المصرية . حتى لقد كان يخيل إلى أن ما أقرأ وصف هذه البيئة المصرية نفسها ، لولا فروق ضئيلة عارضة .

ولست أخفى عليك أن أخص ما يعجبنى ، فى هذين الكتابين، هو سذاجة التصوير ويسره . فإنك تلمّ بالأمر ذى الخطر ، يمس أخلاق الأفراد أو حياة الجماعات ، فتعرضه فى صور سهلة موجزة ، تتعمد ألا تتعمقها ولا تتمها ، لأنك تريد أن تترك لقارئك حظاً من تعمقها وإتمامها . فتشركه فى عملك الأدبى ، وتشعره بأن موقفه منك إيجابى لا سلبى .

فهو شريكك فيما ترسم من صورة ، وشريكك فيما تعرض من رأى . وأحب الكتّاب إلىّ هم الذين يحترمون قراءهم ، فلا يلقون عليهم الأدب إلقاء ، وإنما يسايرونهم فى رياضه وجناته ، وفى صحاريه وفلاواته ، يقفون بهم هنا وهناك ، ليعجبوا معهم بمنظر يثير الإعجاب ، أو يشفقوا معهم من منظر يثير الإشفاق ؛ أو يرتاعوا من موقف يملأ القلوب روعاً .

فأنت زميل قارئك ورفيقه ، لا أستاذه ومعلمه . وهذا عندى أسمى ما ينبغى أن يطمح إليه الأديب .

وأظنك توافقنى على أنى لم أجد فى كتابيك فنك الرائع الدقيق ، وما أراد أن يعرضه من المواقف والمشاهد فحسب ، وإنما وجدت معه روحك الكريم ، وما أحب أن يخفيه من الدعة والعطف والمودة للذين يشاركونه هذه الطرق الفنية التى سلكها .

ولعلك توافقنى أيضاً على أن « خطيئة الشيخ » هو أروع الكتابين ، لأنك قد أتحت لنفسك فيه الفرصة ، فمضت على سجيتها ، وآتت من خير ما عندها ؛ ثمرات حلوة أحياناً ومرة أحياناً أخرى ، ولكنها شديدة الأثر ، طويلة البقاء فى القلوب على كل حال .

وأنا مع ذلك لا أعفيك من بعض الملاحظة . فقد أحسب أنك تعجلت أمر صلاح كله ، فأسرعت إلى شفائه من علة

كان يظن أنها معضلة ، وأسرعت فى حبه وزواجه وترميله ، واختطفت زواجه الثانى اختطافاً . ولو قد استأنيت فى ذلك لأظهرتنا على كنوز من نفوس الشباب ، كما أظهرتنا على كنوز من نفوس الأطفال ، والنساء ، والكهول . وأكبر الظن أنك تعجلت إتمام الكتاب ، أو أكرهت على تعجيله .

أما بعد فإنى أجدد لك الشكر ، وأهدى إليك أصدق الأمانى ، وأرجو أن تتيح ظروف الحياة لك إمتاعنا بمثل هذين الكتابين القيمين ، وأهدى إليك تحية القارئ الصديق للكاتب الصديق ، وهى عندى أكرم التحيات .

طه حسين

جلود الأفاعى

أقام بجوار قصر العدل ، على بضع خطوات من أضيق ساحة فى ساحات المدينة ، وأشدها ازدحاماً بالمارة والمقاهى والمتاجر ، يراقب ويدرس ويحلل ، ثم يستنتج لنفسه الخطط والبرامج . فقد كان سليمان — وهذا اسمه حتى الآن — من المهاجرين إلى هذه البلاد ، سعياً وراء الرزق ، كما كان أسلافه يهاجرون إلى أية بقعة من شواطئ البحر المتوسط ، تتوفر لهم فيها أسباب الحياة والكسب والثروة . فأتقن اللغة العربية المحكية بلهجة البلد ، وبمختلف طبقات هذه اللهجة ، التى تعين لك فى كثير من الأحيان ، الحى الذى يسكنه المتكلم بها ، والاتجاه السياسى الذى يعمل فيه ، والمعبد الذى يتصل داخله بربه ، وغير هذا من حقائق الشخص ، وأسراره الخاصة .

ولئن كان سليمان لا يدرك أى معنى لما وراء ذلك كله ، فهو يشعر بالحاسة « السابعة » التى يدرك بها « الغريب » ما لا يدركه المواطن ، إن المجتمع فى هذه المدينة أشبه ما يكون بقبعة الفلين ، التى نلبسها فى الصيف . فهو فخم فى مظهره ، خفيف

الموازين فى حقيقته ، سريع العطب فى ما قام عليه من أسس .
وسليمان يعلل رأيه هذا بقوله :

— « إن شائعة واحدة ، مهما بلغت غرابتها ، كفيلة بزعزعة الثقة لدى الناس ، حتى بحكومتهم العاملة ، ونقدهم المتداول . وشائعة أخرى ، أشد غرابة وأبعد عن منطق الحوادث والتاريخ ، كفيلة بإعادة المياه إلى سابق مجاريها ! »

لهذا كان سليمان لا يستنكف عن الاستماع إلى كل لسان يحبّ أن يفضى إليه بحديث ، مهما بلغت شهوة الثرثرة بصاحبها ، ومهما تنوعت ألوان تلك الثرثرة . إلا أنه منذ نقل محل إقامته من المقاهى والحانات القائمة حول « باب إدريس » إلى حيث اختار « مكتبه » المتواضع فى أحد الزواريب المجاورة لقصر العدل ، بات يصنف تلك الأحاديث تصنيفاً مدرسيًّا ، على طريقة أصحاب الأعمال وكبار رجال الاقتصاد ، وعظماء الساسة المحترفين .

— « إننى أفعل كأستاذ الأدب فى كليات البلد تماماً — فهو ينسق محاضرته مبتدئاً بتاريخ حياة الأديب ، لينتهى أحياناً إلى نتاج ذلك الأديب ، وأنا أنسق محاضرات الناس ، فى أحاديثهم ، مبتدئاً بالأخبار الجارية والحوادث الرائعة ، فأسرار الأسر والعائلات المترفة ، لأنتهى دائماً إلى خطط السياسة وبرامج الإصلاح ؛ أليس هذا هو مخطط الأحاديث العامة وتصميم

كل اجتماع يعقد بين اثنين ؟ »

يقول سليمان قوله هذا لرفاقه ، ثم يقهقه كأنه يريد أن يشعر سامعيه بأنه أرفع مستوى فكرياً من هؤلاء الناس الذين يفضون إليه بما عندهم ، وإن كانوا يمثلون مختلف طبقات الشعب ، فى هذه المدينة العجيبة .

ولئن كان سليمان أشد اهتماماً بالأحاديث السياسية العليا منه بغيرها ، شأن سائر الناس ، فإن فضائح البيوت ، وأسرار القصور ، ونواحي الضعف فى رجال الأعمال والسياسة ، أوقع فى قلبه ، وأشد علوقاً بنفسه. وهو يبرر ذلك بقوله لمن يستخلصهم من أهل المحلة ، وزبائن المقاهى الدائمين .

— « هذا سلاح لم أخطئ فى الحياة هدفاً صبوت إليه ، كلما استعملته . إن الناس الكبار كالأطفال الصغار يجب أن تعرف من أين تأخذهم . »

وسرعان ما أصبح سليمان خبيراً محلفاً لدى المحاكم . فقد تعرف إلى كثير من ذوى النفوذ ، فأوصوا به خيراً ، يوم كان القضاء عرضة للوساطات ، والقضاة كسائر الموظفين لا يتمتعون بأية حصانة . فكان اكتشاف رئيس المحكمة تلك الحاسة « السابعة » لدى سليمان بمثابة اكتشاف سليمان نفسه . لقد أدرك الرئيس ذاتية هذا الرجل وما فطر عليه ، وما بإمكانه أن يبلغ إليه

فى الحياة ، وفى هذا المجتمع . كما كان وجه سليمان الصبوح ، وقامته المديدة ، وعضلاته القوية ، فضلا عن صفرة عينيه التى تضرب إلى الزرقة ، من جملة شفعائه لدى من يتصل بهم ، من زبائن ورجالات وزبونات وسيدات ، وخاصة ، فئة معينة من هؤلاء وهؤلاء ، لا تقيم لغير المنفعة وزناً .

غير أن ما يكسبه سليمان من مخصصات قانونية تعينها له المحكمة ، كلما انتدب للفصل فى خلاف ناشب ، سواء كان هذا الخلاف بين عامل وصاحب عمل ، أو مؤجر ومستأجر ، أو تاجر ومصرف ، لا يكفى لسد حاجة واحدة من حاجات جسده العملاق ، ولا يشبع شهوة واحدة من شهوات نفسه النهمة . وهو يعلن بصراحة :

— « إننى أريد أن آكل لحم دجاج ، وأشرب ويسكى ، كغيرى من الآكلين والشاربين ! »

وقد ازداد سليمان حرصاً على هذه المتع الجسدية ، فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب العالمية الثانية ، يوم انفلت نهم الناس فى كنف اليسر الذى عمّ البلاد ، وفى ظلال الترف الذى شاع فى جميع الأوساط . فكنت لا ترى سليمان إلا فى وليمة من الولائم التى يدعى إليها ، أو خلف مائدة من الموائد التى يقيمها لنفسه ولأصحابه ، من ذوى النفوذ والجاه والمال .

* * *

فى ذلك الحين كانت دفعات الهجرة ، من القرى والأرياف إلى المدينة والحواضر ، تتوالى ، وأمواج المهاجرين والمهاجرات تتابع ، ولا سيما بعد أن تبين لكثير من أبناء البلاد أن كنوز الثروة ، التى وجدها بعضهم فى مدن أمريكا ومجاهل أفريقيا ، متوفرة كذلك فى هذه المدينة القريبة . فيقول واحد لقومه ، وهو جاد غير هازل :

— « علام تتحملون المشاق وتعانون الأخطار فى سبيل الوصول إلى العالم الجديد ، هناك ، وراء البحار ؟ فى حين أن عالماً آخر جديداً أيضاً يقوم على شاطئ البحر ، فى العاصمة السعيدة ، بين الرأس والخليج ، من ناحية ، وبين الغابة والرمال من ناحية ثانية ؟ »

والواقع أن هذا العالم الجديد « القريب » أخذ يتسع ، فى هذا الحيز المحدود ، اتساع العوالم الجديدة الأخرى ، اتساعاً مخيفاً . فقد قفز عدد سكان العاصمة من تسعة وخمسين ألفاً كما كانوا منذ ربع قرن ، إلى مئة وتسعة وخمسين ألفاً كما أصبحوا منذ خمس عشرة سنة ، وإلى خمس مئة ألف ، كما سيصبحون فى الغد القريب .

ويخطر لسليمان خاطر من هذه المبتكرات الفذة ، التى اشتهر بها رجال الأعمال المرنون ، الذين يحسنون التكيف كلما

استدعى واقع الحال منهم تكيفاً ، ولو خمس مرات فى اليوم الواحد . فيعتنق جنسية دولة أجنبية عظمى ، لم تكن مطامعها فى البلاد تقل عن مطامع أية دولة أجنبية أخرى . ثم يعلل تصرفه لأصدقائه من المواطنين « غير المزيفين » ، بقوله ، مبرراً تنازله عن جنسيته الأخيرة بهذه السرعة وهذه السهولة :

— « أنا قلبي معكم ، وبعد فالجنسية كهذا الثوب إذا بدله الإنسان ، لا يفقد شيئاً من شخصيته ولا من عواطفه ، ألم يقولوا : الثوب لا يصنع الإنسان ؟ »

فيجيبه أحد أولئك الأصدقاء الكبار :

— « ولكن لا تنس يا عزيزى سليمان بك أن « سبنسر » يقول عكس ذلك تماماً . وأنت نفسك برهان حى على صحة قوله ! »

فيضحك سليمان ضحكته الصفراء بكلتا شفتيه المسترخيتين وبإحدى عينيه الزرقاوين ، ثم يتابع حديثه الطريف ، بلهجته الظريفة المستملحة ، كأنه لم يسمع شيئاً . ولئن فقد الرجل بتخليه عن الجنسية الوطنية ، دون استشارة الشخصيات التى دعمته يوم نالها ، شطراً من ثقة هؤلاء الأصحاب ، فإنه اكتسب بنيله الجنسية الأجنبية الجديدة قوة فى « السوق » ، وثقة لدى بعض الأوساط ، لا يعادلها إلا قوة « الأجنبي » وعظمة الثقة به فى جميع البيئات ، فى ذلك الحين . بل إن سليمان نفسه قد انقلب

شخصاً آخر ، لا يرضى عن نفسه « البلدية » السابقة ، ولا عمن حوله فى هذا الوطن ، من شباب البلاد الأصيلين الذين يغادرونها إلى الخارج ، كيما يستعدوا للعمل لها ، وعلى رفع مستوى حياة الناس فيها ، فيعودون إليها بأجساد منهوكة وقلوب يائسة ، وعقول غريبة . لا يعجبهم فى أوطانهم شىء ولا يعجبون هم من يعيش فى تلك الأوطان .

غير أن سلمون — وهذا اسمه منذ الآن — لم يكن على الوجه الصحيح كهؤلاء الشبان المواطنين تماماً . فقد احتفظ ، على الرغم من تنقله فى المكان وفى الجنسيات ، بسلامة بدنه ، وقوة عضلاته ، وبشاشة وجهه . وما تبدل فيه إلا عيناه ، خلف نظارتيه الجديدتين ، فقد أصبحتا أشد عمقاً ، وأبعد غوراً حتى ليعجز الناظر إليه ، من أبناء البلد العاديين ، عن قراءة ما فيهما من سر ، أو استشفاف ما وراءهما من عواطف .

وأعجب ما تلمس جيران سلمون فى معاملته الجديدة لهم ، هو هذا الترفع عن مؤاكلتهم كما فى السابق ، فى صحن مشترك ، أو مشاربتهم فى فناجين قهوة تدار على الجمع الحاضر ، أو مسايرتهم فى مواضيع الثرثرة اليومية ، وأحاديث السياسة العليا . فقد بات سلمون — أو البك كما يحلو له أن يدعى — يؤثر العزلة فى مكتبه ، كما بات يؤثر أن يستقبل زواره وزائراته على انفراد ،

خلف حجاب حاجز ، أو أن يكتب ، وكثيراً ما يكتب ، تقاريره ومذكراته بلغته الأصلية تارة ، وبلغة القوم الذين اختار جنسيتهم تارة أخرى .

ولعل ما أشيع عنه ، حينما عرف الناس اختياره الجنسية الجديدة ، والطريقة التى لجأ إليها فى سبيل الحصول على تلك الجنسية العسيرة المنال ، والوسيط الذى شفع به لدى المرجع المختص ، وكل ما يمكن أن يعرف من أسرار قضية فى مثل خطورة هذه القضية ، مضافاً إلى ما نسجه الخيال وحاكته الألسنة وتصورته العقول ، وإلى ما يبدو من مظاهر النعمة المستحدثة على هذا اللاجئ « الغريب » ، كل هذا كان من أسباب سقوط سلمون فى عيون البعض ، ومن أسباب رفعته فى عيون البعض الآخر .

* * *

وانطلقت الرصاصة الأولى فى الشرق الأوربى ، فصحا العالم من غمرة سلم مسلح ، أرادوه سلماً دائماً فى فرسايل ، فكان الشرارة التى ألهبت العالم من جديد . فإذا سلمون بك أسرع من سارع إلى التكيف ، وإدخال التعديلات الجديدة ، وفاقاً للظروف الطارئة ، على عمله ، ومحل عمله ، وخاصة على الروح التى يعمل بها ، والهدف الذى يعمل له .

وكان ذلك فى صباح الأحد فى ٣ أيلول ، يوم أعلنت بريطانيا العظمى أنها منذ الساعة تعتبر نفسها فى حالة حرب مع ألمانيا . فقد هبط الأستاذ سليم — وهذا اسمه منذ ذلك الحين — مكتبه ، ورسم فيه الخطة المثلى ، وبادر فوراً إلى تنفيذها . فما أطل صباح يوم الإثنين التالى حتى كانت الجرائد ، والجدران وكل مكان آخر يصلح للإعلان ، تحمل جميعها اسم « مكتب العمل والاستخدام » شارع الخالدات ، بجوار السراى ، رقم الهاتف ٥٦ — ١٨ صندوق البريد ٩١٥ .

وما كان أشد عجب الجيران ، حينما فتحوا مخازنهم الناصلة أبوابها ، والعتيقة إعلاناتها ، والقذرة مداخلها ومخارجها ، فرأوا ، بجانب هذه الآثار البلدية المهملة ، أصباغاً تزهو على الباب المجاور ، وإعلاناً يرقص فوق مدخل المكتب القديم ، وخادماً ينظف المدخل المرتب . وخلف هذه المظاهر كلها ، حقيقة جديدة لذاك الكائن المتجدد ، كما تتجدد قشور الأشجار وجلود الأفاعى .

وتوالت على الغلام الأسئلة من أولئك الجيران الأعزاء :

— « ماذا تعمل هنا ، ومتى جئت ، وما اسمك ، وكم أجرتك ، ولماذا سمى المكتب « مكتب العمل والاستخدام ؟ » وهل من أعمال جديدة بعد الكساد ، وأزمة البطالة التى تعانى مع

العالم مضضها منذ عشر سنوات ؟ هل ستفرجونها أنتم بمكتبكم هذا الكسيح ؟ »

وكأن الأستاذ سليم ، شأن مارد الأساطير لدى الحاجة إليه أو شأن الذئب عند ذكره ، قد حملته الأعجوبة إلى المكان ، قبل موعد قدومه . فاستمع إلى ختام الأسئلة التى حاول الجيران أن يستنبشوا بها أسراره ، من هذا الولد الصغير — على طريقتهم التقليدية فى المثل القديم : « خذ أسرارهم من صغارهم » . أو أن يثيروا فى نفس هذا الغلام — على الأقل — بعض الشبهات ، فيفسدوا على جارهم صاحب « مكتب الاستخدام » ، عمله العبقرى ، على طريقة السياسة المحلية ، فى زرع « الكشاتبين » ووضع القضبان فى العجلات . فما كان من الأستاذ سليم إلا أن ابتسم لهؤلاء الأصدقاء اللدودين أجمل ابتسامة لديه ، وأمسك بكتف أقربهم إليه وقال لهم بصوت ناعم لطيف ، كصوت بعض الموسرين المخنثين والوصوليين الانتهازيين :

— « صباح الخير يا إخوانى ، أهلا وسهلا ، أنا كنت موعوداً بهذه الزيارة وقد حققتم لى فوق ما وعدت به نفسى . هذا المكتب مكتبكم ، فإذا كان عند أحدكم امرأة أو فتاة أو شاب أو رجل أو جماعة يريد أن يشغلهم ، فأنا مستعد أن أجد له أو لها العمل المناسب ، والمكان الملائم ، والأجرة الكافية ! ».

لقد كانت المفاجأة أشد وقعاً على هؤلاء الأصحاب من وقوف الطير على رؤوس أصحابها ، فى المثل السائر . فجمدوا وسمروا فى أماكنهم ، كما سمرت ألسنتهم فى حلوقهم ، فلم يجيبوا بحرف . وإن كان الذى أمسك سليم بكتفه قد تراءى له أخوه ، منذ تلك اللحظة ، وكأنه يجيء إليه فى صباح الغد ، فيحمله إلى « مكتب العمل والاستخدام » فيجد له الجار سليم عملا ، ويتخلص هو من الإنفاق عليه وعلى أسرته الوفيرة العدد ، فيوفر فى السنة ثمن قطعة من الأرض ، يبنى عليها بيتاً فى السنة التالية .

وكان أشد الجماعة حيرة الغلام نفسه ، لا لأنه كلم الجيران خلافاً لما أوصاه به « المعلم سليم » ، ولا لأنه لم ينظف داخل المكتب بعد كنسه بخرقة مبلولة ليزيل الغبار وآثار الذباب المتراكمة عن صورة « المعلم » على الأقل ، بل لأنه لم يشاهد أخته تجيء مع المعلم سليم ، كما وعدته مساء اليوم السابق ، وكما أكد له المعلم ذلك ، صباح هذا اليوم . ومع ذلك فقد كان الغلام أول المتكلمين ، بعد الدرس الذى ألقاه سليم على جيرانه ، كما تلقى الحجارة على رجال الشرطة فى المظاهرات الصاخبة ، فقال للرجل الذى صار معلمه ، منذ البارحة عند الظهر :

— « أين أختى لميا يا أستاذ ؟ »

فكان هذا السؤال ، على مسمع من الجيران الذين كانوا قد بدأوا يستعدون للانسحاب دون انتظام ولا جرأة ، أشبه بالصفعة على وجه السكران ، تؤلمه ولكنها تعيد إليه الصحو ، وتبعث عنده الشعور بالكرامة . فالتفت أبو خليل ، أكبر الجيران قدراً لأنه أكثرهم مالا ، إلى الأستاذ وقال له متعجباً :

— « لميا ؟ أنت تستقبل النسوان خارج مكتبك أيضاً ؟ »

فارتبك الرجل المسئول ارتباكاً عارضاً لم يدم أكثر من لحظة الاستعداد لتمويه جديد ، وأجاب ، والبسمة المصطنعة لا تفارق شفتيه الغليظتين :

— « فى المكتب وخارج المكتب . . . على حد سواء ، فى سبيل العمل والاستخدام ، بالطبع ! »

* * *

لم يكن ما نشره هؤلاء الجيران بألسنتهم أسوأ نتائج مما نشره الأستاذ سليم بوسائل الدعاية الأخرى ، سواء كان ذلك عن مكتبه أو عن الغرض من افتتاحه هذا المكتب ، الأول من نوعه فى هذا البلد . فقد كانت « السمسرة » لتأجير البيوت ، ولاستخدام البشر ، مقتصرة على شخصين أو ثلاثة لا مكتب لهم ولا مقر ، إلا فى بعض المقاهى الرخيصة ، أو لدى باعة التبغ والتنباك ، كما يفعل أكثر مخاتير البلدة . فجاءت الدعاوة التى

تبرع بها الجيران ، والدعاوة الأخرى التى قام بها سليم لنفسه ولعمله تملآن المدينة بالأخبار المتناقضة ، عن نوع هذا العمل ، وما وراء النيات ، وعن المكتب وما احتواه من أثاث ورياش ووسائل إغراء . وعن صاحبه . وعما استجمعه فى شخصه من عواطف ونزعات ، وشخصيات ، وعن ماضيه وما نسج حوله من أساطير وشبهات .

ثم اشتدت أزمة البطالة فى البلاد . حتى صار العامل يرضى بربع ليرة أجرة عمله فى يومه ، وباتت الخادمة تكتفى بثلاث ليرات أجرة كدحها طوال شهرها . فلم يفت الأستاذ سليم أن يستفيد من هذا الوضع الشاذ . فبينما كانت الدول المتحاربة تبحث فى أوربا عن الرجال والنساء لتجنيدهم فى الحرب الكلية التى اشتبكت بها ، كان الرجل هنا لا يجد ما يقتل به الفراغ غير دفء الوظيفة . كما لا تجد المرأة ، فى كل مدينة وقرية ، من حولها إلا فراغاً متصلا . وسليم يحسن بعض اللغات الأجنبية . تعلمها فى مختلف الأوطان التى ارتادها قبل أن استقر فى هذه البلاد . وهو على صلة بكثير من الجهات التى تبحث عن الرجال المرنين الأشداء ، كما تبحث عن النساء المرنات الجميلات . وما عليه أن يقول الجيران عنه ما قالوه فيه منذ بدأ عمله هذا ، وقبل أن تشيع فى الأحياء المختلفة أخبار علاقاته

بهذه الخادمة وبتلك ، أو قصص فضائحه وأنباء احتيالاته . فلقد تعودت أذناه سماع هذه الأنغام الرتيبة ، وبرزت فى وجهه علامات الجرأة والصفاقة اللتين فطر عليهما ، ثم مكنتهما فى نفسه غربته الطويلة . ثم هو لا يهمه من هؤلاء الناس أقوالهم التى لا تزيد ولا تنقص من موارد رزقه . فيقول لنفسه :

— « وما قيمة ثرثرة الأفواه إذا لم تنتج عملا . هؤلاء الناس يملأون الآذان والأجواء بما يقولونه فى كل حكومة تقوم عندهم ، منذ أيامها الأولى . ومع ذلك تعيش تلك الحكومة وتعمر الوقت المعقول لأعمار الحكومات ، فى هذه البلاد ، وغير المعقول أحياناً . ثم تنسحب بعد أن تنال مرة أخيرة ثقة المجلس بأكثرية ساحقة ، إن لم يكن بالإجماع. فما قيمة هذه الثرثرة ، وما وزن هؤلاء الناس ؟ »

ثم يقهقه المعلم سليم قهقهة مرققة ، خشية الجدران وآذانها ، وحذر هؤلاء الذين لم تبرح الكرامة عندهم فى زنة الروح ، وإن كانوا قليلين ، يجودون بها كى تسلم كرامتهم ، ويضحون فى سبيلها بكل عزيز وغال ونفيس . ولئن كان عامة الناس فى مثل هذا المستوى « العصبى » إلا أنهم فى غالبيتهم قد فقدوا « حدة » الشعور بما يؤذى تلك الكرامة ، بعد قرون من استذلال واستعباد ، فباتوا وهم أحرص على أن يقتل أحدهم « صاحبه » من أجل « القرش » منهم على الوقوف فى وجه «عدوهم» المشترك

في سبيل الكرامة القومية !

وتمضي الأيام والشهور . والحرب في الغرب قائمة على الدول قاعدة على الفظائع ، تحصد العمران والحضارة كما تحصد البشر والحيوان والنبات . بينا ظل الشرق على وجه عام يرتع في بحبوحة من الهدوء والرخاء ، حتى ليبكي الناس فيه موتاهم بكاء حاراً . كما ظل الأستاذ سليم يستقبل من يتوافد على مكتبه من طلاب عمل وطالبات استخدام، بكل ترحاب وتهذيب وعناية . فيسهل للرجال الانخراط للخدمة في الجيوش الحليفة ، أو التطوع للحرب على جميع الميادين طوال أيام النزاع . وييسر للنساء وللفتيات سبيل الاستخدام ، في البيوت أو في المحلات التجارية وسواها من المؤسسات . وقد كان يجد في كل ذلك لذة لا يفسدها عليه ما يسمعه عن نفسه من مختلف الشائعات ، ولا يمحو أثرها ما يلقاه في بعض اللحظات من تقريع الوجدان .

ولكن هذه الأيام العصيبة نفسها كانت أسرع الأيام في حياة سليم إلى الزوال. فهو ما يكاد يستقبل عاماً حتى يودعه ، كأن سني الحرب ساعات لهو وعبث . وما يكاد ينهي علاقته بأحدى « فنانات » الحرب حتى يبدأ علاقة جديدة . والأيام تمرُّ عجلى محمومة ، والشباب يخبو كذلك ، ولكن على مهل ، كما تخبو النار في موقد تكاثف رماده حتى سد عليها منافذ الهواء .

وفى ذات يوم ، من شهر آب فى السنة ١٩٤٥ ، وكانت الحرب قد انتهت فى أوربا منذ مطلع أيار ، وباتت على وشك الانتهاء فى الشرق الأقصى ، دُقّ جرس الهاتف فى مكتب الأستاذ سليم . فتناول السماعة ملهوفاً ، كما لم يفعل منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل تجنسه الأخير . وإذا به يسمع خليطاً من الأصوات الخافتة ، والهمسات المتكررة ، يعلوها جميعاً صوت قوى النبرات صحيح التعبير واضح الأداء ، يقول له :

— « يا ابنى ، أنت المعلم سليم ؛ هنا دار الولادة . . . تعال استلم بنتك سوسو ، لقد دعوناها مؤقتاً بهذا الاسم ، امرأتك . . . أعطتك عمرها والمولودة بانتظارك ، منذ الليلة البارحة ! »

حقاً لقد كانت الصدمة أشد مما توقعه سليم ، وكانت المصيبة أكبر من أن يتجاهلها رجل فى مثل لا مبالاته ووقاحته . فلما أعاد سماعة الهاتف إلى مكانها من ظهر الآلة ، كانت مفاصله جميعها محطمة تحطيما عضوياً . حتى عيناه الزرقاوان فى صفرة كصفرة المشمش ، جمدتا ، وتعلقتا بأسارير ذلك الوجه الذى عادت معالمه إلى وعيه ، بإشراقة مفاجئة ، والذى لن ينساه بعد اليوم . وجه تلك الفتاة التى توسلت إليه بكتاب أن يجد لها عملا شريفاً ، فساومها على شرفها ، وخطّ لها عهداً بالزواج . ولكنه

لم يخطر له ببال أن خيانته ذلك العهد ، فى تلك المرة ، كانت كافية للقضاء على هذه الفتاة ، بعد أن تخلف له وحده ثمرة فجوره .

ولقد ظل الناس ، فى مناطق المدينة الداخلية وما جاورها ، يشهدون برهة من الزمن فى كل صباح ، رجلا عملاقاً « مهدماً » يمر بهم ، وهو يجر بإحدى يديه طفلة يسيل أنفها ، ويمسح بالثانية عينيه اللتين تسيلان كذلك . ولكن واحداً منهم لم يجد من نفسه فى يوم من الأيام باعثاً على اللحاق بهذا العملاق إلى حيث يقيم طوال يومه ، ولا أحس أحدهم رغبة فى استطلاع أمره ، فى أمسياته ولياليه . فقد مات كثير من الأشخاص الذين عرفوه ، ورافقوا « تجولاته » ، طيلة الحرب المنصرمة . وأصبح بعضهم ، بأرباح الحرب ، من الطبقة الأرستقراطية التى لا تتدنى إلى مستوى الناس وما يعرض لهم فى الحياة . وبات بعضهم الآخر فى أعقاب الحرب من عداد الوزراء السابقين أو الزعماء الذين لم يعودوا بحاجة إلى الناس . وما الفائدة من استطلاع أمر رجل أجنبي مشبوه ، من هؤلاء الذين تعج بهم البلاد ، حتى ليبلغ عددهم خمس سكان العاصمة ، التى تؤوى بدورها نصف سكان البلاد ؟ ثم ما الفائدة من مراقبة هذا الرجل الضعيف ، الفقير ، وغيره آلاف من التجار الأقوياء الأشداء يثرون على

حساب هذا المجتمع ، فى حين يفنى بالحرمان فلاحه الجاهل ، ويهلك بالتقتير عامله الكادح ؟

* * *

ثم هذا الرجل غريب الأطوار . وقد رأى الناس منه ، ومن أمثاله ، من الغرابات ما زهدهم بكل غرابة ، شأن المتخم يعزف عن كل طعام ولو كان شهياً . ولطالما ادعى الأمريكان بأن بلادهم هى موطن الغرائب ، وبأن سكانها هم وحدهم مجترحو العجائب . حتى كانت الحرب العالمية الأولى ، وكان اتصال فريق منهم بأقطار مختلفة من العالم القديم ، وحتى كانت الحرب العالمية الثانية ، وكان أن توافد فريق آخر منهم على أجزاء أخرى من العالم القديم — عندئذ ثبت لهؤلاء الناس الذين يعتزون بناطحات السحاب عندهم . وبالدولار فى بلاد الناس الأخرى ، أن فى سائر أنحاء العالم « غرائب » أغرب مما عندهم « وعجائب » أعجب مما عهدوه فى مجتمعهم .

وكان « الخواجة » سلمون ، وهذا اسمه من جديد ، واحداً من تلك المكتشفات . فقد اهتدى إليه أحد الجنود الأميركيين ، فى عشية أحد من آحاد الربيع . وكان الزهر والعطر والجمال والفن على موعد ، فى إحدى الحدائق التابعة لبعض المقاهى ، بجوار « حى اليهود » . وكان الجندى — هارى — يبحث عن

صيد ، فى زوايا ذلك الحى ، وعند منعطفات الأزقة المتفرعة منه باتجاه الفنادق الكبرى عند شاطئ البحر ، وباتجاه « بيوت المواعيد الخاصة » ، بجوار دوائر الأمن العام . ساعة التقى فتاة لا يزيد عمرها عن عمر البدر ، تسارع إليه وتسأله بلهفة دون حياء مصطنع :

— « أنت تبحث عن مكتب الاستخدام الجديد ؟ »

ثم تبسم عن غير أسنان اللؤلؤ ، فيرى هارى فى التنافر بين حمرة الشفتين الناصلة ، وصفرة الأسنان الفاقعة ، وسط الوجه البيضوى الناعم ، والأنف الحنى الأقنى ، والشعر الخروبى الأجعد ، صورة ما ينشده من جمال غريب ، ومتعة رخيصة . فيقبل « هارى » بكل قوة على الفتاة يصافحها ، ويعبق وجهه بحمرة كلون الشفق ، عند أطراف الغيوم المتجمعة بين يدى المغيب ، ثم يتأبط ذراعها فتقوده (ساره) إلى حيث يريد .

وفى صباح اليوم التالى كان هارى يقص على رفاقه ، فى المخيم القائم وسط غابة الزيتون ، على مقربة من العاصمة ، حكاية الخواجة سلمون ، ذلك الرجل الذى لم يرَ فى حياته أغرب منه أطواراً ولم يسمع ، على وفرة سياحاته ، بأعجب من قصصه وحكاياته — سواء كان فى « مكتب الاستخدام القديم ، أو فى مكتب الاستخدام الجديد » باستثناء من رآهم — هارى نفسه — فى تل أبيب .

فيقول أحد الرفاق ، وقد انتهى من كتابة هذا « الحديث الخطير » الذى اختزله فى مذكرته ، وهو ينفخ بين شفتيه علكة لا ينفك عن مضغها.

— « شكراً يا عزيزى هارى الصغير ، سأبعث بحديثك الممتع إلى . . . « اليونايتد برس » . . . وأرجو أن يقرأ هذا الخبر الرائع ، « سميك » الكبير ، فيرى أيهم أحق بالترحيل هذا « الرجل » ومئات الألوف أمثاله عن فلسطين المقدسة ، أم أولئك المئة ألف الآخرون القابعون فى أوربا غير « الطاهرة ! »

فيضحك هارى ، ويضحك سائر الرفاق ، إلا واحداً من المتطوعة ، فيليب المزرعانى الذى انضم إلى فرقة الحلفاء الديموقراطية طلباً للرزق ، كما تطوع من قبل فى الفرقة الفاشستية . فقد هب واقفاً ، يصرخ غضوباً متألماً :

— « لا لا أيها السادة . الحياة لا تطاق إذا خلت البلاد من هؤلاء . . . أتريدون لنا أن نظل « بعدهم » على هذه الحصيرة حول كأس من العرق ، وبدرة من فول العبيد ، لا طويلة ولا قصيرة ؟ »

وكانت الكلمات كقصف الرعد المفاجئ فى ربيع سواحلنا الدافئة ، يخرس العصافير المغردة ، ويرعب الزهرات المتفتحة ، ويخيف النملات الكادحة . ولكنها جاءت كذلك ، فى نفوس هؤلاء

الجنود ، الذين تعودوا أن لا يحترموا غير القوة ، وأن لا يقدروا غير الكرامة ، في الأفراد وفي الشعوب . كزوبعة في فنجان ، أو عطسة في عاصفة ، لم يعيروها فوق ما تستحق من اهتمام ، ولا أكثر مما يتحمل قائلها من تبعة . وقد انفضّ الجمع من حول هارى وفيليب ، إلا « المراسل الحربى » . فقد ظل واقفاً يحدق في وجه هذا الإنسان ، الذى يتحمس لكل ما ليس له صلة بوطنه ، ولا رابطة بقضية قومه ، وكأنه يدرس أحد الآثار من مخلفات ما قبل التاريخ ، في المتحف العام . ثم جمع علكته من أطراف فمه ، وكورها على رأس لسانه ليقذف بها صفعة مجنحة في وجه . . . هذا المتطوع المفجوع بأسياده المستعمرين ، قبل جلائهمَ الأخير .

ولولا أن هارى كان قد أسرع إلى الراديو ، فالتقط صدفة محطة إذاعة تنشر في الصباح الباكر أخبار الشرق الأوسط ، وسائر العالم ، باللغة العربية ، فلفت بذلك اهتمام فيليب الذى يفهم وحده هذه اللغة ، لكانت المهزلة قد طالت أكثر من اللحظات التى استمرت فيها ، على الرغم من أن فيليب قد عود هؤلاء « الفرنج » كما عود قبلهم سواهم ممن تطوع في جيوشهم ، المقيمة منها في البلاد والعابرة ، على أن يصفح عن إساءاتهم إليه وإلى كرامته ، بالقدر الذى يحقد فيه على مواطنيه أبسط إساءة

تصيبه منهم ، وعلى وطنه ، كونه قطعة من هذا الشرق . وقد كان المراسل الحربى ، تيودور ، ينتظر كل شىء ، رداً على ما قذف به وجه فيليب ، إلا قوله له وهو يرقص طرباً : .

— « اسمع يا تيودور ، اسمع ما تنقله لندن عن رويتر وتاس لقد سبقوك إلى نشر الخبر الخطير ! يا للعظمة فيكم أنتم أيها ... الفرنج! اسمع « أبرق مراسل رويتر فى بقعة ما من الشرق الأوسط يقول : عثر الأمن العام عند منتصف هذا الليل بالتوقيت المحلى — أى فى الساعة الثانية والعشرين بتوقيت غرينوتيش — على عصابة تهريب صهيونية ، اتخذت مكتب المدعو سلمون مركزاً لها . وقد وجدت لديه خمسون فتاة قاصرة كن قد أعددن برسم التصدير إلى فلسطين ! .

وأذاع راديو موسكو نقلا عن مراسل تاس أن مجلس الوزراء قد اجتمع على الفور واتخذ مقررات خطيرة . ولكن صاحب مكتب الاستخدام المدعو سلمون المجريطى لم يبرح متخفياً ، ويقال إنه محمى إحدى الشخصيات الإقطاعية . وعلى كل حال فالأوساط الوطنية واثقة من أن « الاستقلال » لن يصيبه مكروه من جراء هذا الحادث الخطير . »

لم يصل فيليب إلى هذا الحد من ترجمة ما قيل ، حتى قطب ما بين عينيه . ثم غضب غضبته التقليدية ، وراح يقذف

الأرض والسماء بحمم ألفاظه المنتقاة ، بينما تابع هارى بحثه عن محطات العالم ، يستمع إلى أخبارها الباكرة ، وتابع تيودور تحرير رسائله الحربية المعجلة على صفحات مذكرته التى لا تنفد . فيكتب بالاختزال فى الصفحة ٢٢٥ ، عند السطر السادس والعشرين :

— « أمريكا بلاد العجائب — نو »

— « الشرق فى مكتب الاستخدام — يس »

— « هارى عدو العرب — نو »

— « فيليب الصهيونى وسلمون الجريطى — يس »

ثم طوى المراسل الحربى أوراقه ، لينشر فى فمه علكة جديدة ، راح يمضغها بانتظام عسكرى ، وفن ديموقراطى .

١٩ حزيران ١٩٤٦

نهاية طاغية

فى البلاد التى تبلغ قمة الحضارة ، تنصرف همة الناس إلى العناية بالحيوان ، لأنهم لا يجدون إنساناً محروماً يحنون به . وهكذا عمد فريق من المترفين ، فى مدينة سهلباد ، إلى تشجيع نسل ... الحمير . فأقاموا لها نادياً ليس لبنى الإنسان مثله ، فى تلك البلاد التى عاصرت قارة « أطلنتيد » ولكنها لم يخسف بها معها . فظلت سهلباد على ساحل البحر عروساً تباهى بأمجادها روما القديمة ، وتضاهى بموقعها الجميل أحلى مدن العالم الجديد .

فى هذه المدينة بالذات نشأ « حمار زاد » . بعد أن عاش ثمانية عشر شهراً فى قبرص . حيث ولد فى أسرة عريقة كانت من بقايا الغجر الشرقيين الذين اشتهروا بالذكاء ، حتى لينطق صبيهم وهو فى المهد ، وتتفهم حميرهم ما يجول بخاطر الناس .

و « حمار زاد » هو أحد تلك الحمير الأصيلة . جاء جده العاشر من قلب الجزيرة ، وراح ذلك الفحل ينسل حماراً فحلا مثله حتى ولد « حمار زاد » من أب غجرى وأم « سهلبادية » . وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثانى ؛ فى

أواخر القرن المنصرم . وفى تلك السنة نفسها أنهى حبيب دراسته الثانوية ، وكان شابًّا، مثله الأعلى أن يصبح موظفاً . شأنه فى ذلك شأن أكثر الشبان المتعلمين ،فى سهلباد . الشهادة عندهم سلم للوصول إلى وظيفة ، أو مطية إلى مهنة حرة . وفى كلا الحالين ، هم يفضلون على العمل المنتج ، أن يجلسوا وراء المكاتب ، يعددون الأيام ، ويستقبلون الزبائن ، بروحية التجار والبياعين . وليس فى ذلك أى عجب ، فسهلباد مدينة تقع على طريق القوافل البرية التى كانت تجوب هذه البقعة من العالم . وهى مرفأ كبير يختلط فيه الناس وتتلاقى الأجناس ، كما تتلاقح العقائد وتمتزج الثقافات . وكان حبيب صبيًّا وحيداً ، لمهاجر فقير وفد إلى سهلباد ، من إحدى الجزر المتوسطية ، فلقى لدى الحاكم المستعمر كل ترحاب ، إذ وجد الحاكم فيه خير مساعد على قضاء شهواته ، ثم تنفيذ أغراضه ورغباته ، فى سكان هذه المدينة ، الذين اعتادوا الرضوخ لكل فاتح ، حفاظاً على ازدهار تجارتها ، وضنًّا بدماء أبنائهم .

وقد عين الحاكم هذا المهاجر المطواع وكيلا عامًّا ، فعرف بهذا اللقب . ثم استحصل له من السلطان على رتبة توازى رتبة باشا فى بعض البلدان . وكان ذلك مكافأة من السيد المستعمر إلى الخادم المتفانى . فمن يخدم الحاكم فى سهلباد كمن يخدم

الدولة . فالدولة هى السلطان ، ومن يوليه الأحكام ، ولا مفهوم لها غير ذلك فى الأذهان .

* * *

فى كنف هذا الأب نشأ حبيب ، بعد أن ماتت أمه بالسكتة القلبية ، وهو رضيع . فقيل إنها كانت ضحية الصدمات العاطفية التى أصابتها من جراء سلوك الزوج ، على الرغم مما كان يوفره لها من رفاهية ويسر ، ونفوذ فى المجتمع السهلبادى الذى يقيس كل شىء بمعيار الذهب ، ولا يقيم للذكاء والفضيلة والكفايات الشخصية أى وزن .

وقد احتضنت الأم ولدها الوحيد يوماً وقالت له :

— « لقد ورثتك جميع خصائصى الجسدية : من بياض البشرة إلى شقرة الشعر ، ولكنك لم ترث ما فى نفسى ، حتى ولا لون عينى ، نافذتى تلك النفس المطلتين على الوجود ! » .

وهكذا كان لزاماً على حبيب أن يرث عن أبيه كثيراً من الخصائص ، دون الأموال التى ذهبت مع الريح كما أتت : من صفرة العينين ، وقصر القامة ، إلى خبث الطباع ، وخساسة النفس ، إلى قدرة على الدس والشغب بلغت حد الإعجاز . لذلك عرف حبيب فيما بعد باسم حبيب الدساس . وربما أضاف الناس إلى اسم حبيب أوصاف أبيه ، فدعوه بألقابه جميعها . . .

تخليداً لذكرى الأب فى الابن ، وتكريماً لنبوغ الابن فى ما ورثه عن الوالد !

* * *

هذه صورة سريعة الخطوط لحبيب السهلبادى ، مستمدة من مذكرات « حمار زاد » ، ذلك الحمار الذى انتقل إلى ملكية حبيب، فى السنة الماضية .

أما كيف ، ومن أين لهذا المستخدم الفقير أن يصبح مالكاً للحمير القبرصية والجياد العربية والأراضى الزراعية والعقارات المبنية ، فإليكم بيان ذلك، نقلا عن تلك المذكرات .

« لقد صار حبيب السهلبادى مستخدماً لدى الشركة الكبرى التى تألفت أبان الحرب العالمية الثانية . وكانت شركة محدودة مساهمة ، اقتصرت على بعض الأفراد الذين يقيمون فى حى الأغنياء من مدينة سهلباد . وهو حى المصارف والشركات المالية ، يقع إلى جنوب النهر المقدس الذى يخترق المدينة ، ويجف فى الصيف كسائر أنهارها .

وفى هذا الحى انطلق حبيب ، فوجد عند جميع الكبراء والعظماء والزعماء المترفين الترحاب الذى وجده أبوه لدى الحاكم المستعمر، فسار الولد على خطة أبيه، وزاد عليها فنوناً جديدة ، أهّلته لأن يصير رئيساً لجميع مستخدمى الشركة ، ومن بعد « ظلا » لرئيس

الشركة ، لا يفارقه إلا لكى ينام .

بل كثيراً ما ناما معاً ، فى مكان واحد ، حينما كانت الظروف الخاصة تضطرهما إلى مغادرة سهلباد ، فى رحلة أو مغامرة .

ويقول حبيب لرئيس الشركة الذى هجر زوجته بسبب صحبته إياه :

— « هل أدلك على خطة تصبح بعدها رئيساً للشركة مدى الحياة ؟ يجب أن تعمل على إفلاس سائر الشركات ومحوها كى تبقى شركتنا وحدها . . . هى المالكة سعيداً فى أسواق سهلباد ! »

فيقول رئيس الشركة مستدركاً :

— « ولكن . . . لا تبقى أسواق . . . إذا أفلست تلك الشركات جميعها ، وبقينا وحدنا . . . وهل يبقى « عالم » نعامله إذا ضربنا بالقنبلة الذرية مثلا جميع البلدان ؟ إننى لا أدرى كيف يعيش الإنسان أو تزدهر دولة إذ استأثرا بالخيرات وحدهما ؟ »

فيرد حبيب متخابثاً :

— « بالطبع . . . لا بد من استثناء الشركات التى لا نخشى مزاحمتها . . . والتى ترضخ لشركتنا صاغرة ! »

ويقتنع رئيس الشركة بوجهة نظر « حبيب السهلبادى » بعد جدل قصير ، فيعلن الحرب على جميع المؤسسات والشركات ...

والأشخاص الذين يستشم منهم القدرة على المزاحمة أو الميل للتمرد على سلطانه . ولا يوفر لمن حملته تلك غير المستضعفين ، ذوى الشخصيات المائعة . . . من أشخاص معنويين وماديين . حتى يتم له النصر ، فيعلن حبيب الدساس أنه صار رئيساً مدى الحياة للشركة الوحيدة فى سهلباد . شركة الاستثمار والاستغلال المساهمة المحدودة .

فى هذه الأثناء تكاثرت على حبيب الأموال ، كما تكاثرت من قبل على أبيه . فهو لا يعفى شخصاً . دخل على رئيس الشركة أو خرج من عنده ، من الرسم الذى فرضه لمنفعته . كما يفرض الطغاة الضرائب الباهظة على الشعوب المستكينة . وكانت نسبة ذلك الرسم بين خمسة بالمئة وعشرة بالمئة . عن كل مبلغ يستحق لرئيس الشركة . . . فضلا عن العائدات « غير المنظورة » ، من رسوم التسجيل التى كان يقبضها حبيب ، ولا يدفعها لصندوق الشركة ، ورسوم التمغة التى كان يتقاضاها أضعافاً مضاعفة ، وبقايا أجور العمال ، وأكلاف الحفلات والرحلات ، وأثمان المطبوعات والقرطاسية وسواها من اللوازم المكتبية .

وفى يوم كان رفاقى ، وهم خيل الاسطبل المجاور ، يستقبلون فرساً اشتراها صاحب ذلك الاسطبل من اليونان ،

فسمعت خلفى ضجة مصطنعة ، تميزت خلالها قهقهة حبيب السهلبادى ، تلك القهقهة الشبيهة بصوت الحديد يمزق الحديد. فارتعشت وخيل إلى أن هذا الإنسان ما جاء إلا نذير شؤم . وسرعان ما تأكد لى أن ظنى كان فى محله . فقد سمعته يقول لمعلمى الأول :

— « هذا الحمار القبرصى يعجبنى فكم عمره الآن ؟ »

ولما اطمأن حبيب إلى أننى دون الثالثة من عمرى ، واستوثق من سلامة نسبى العريق ، قهقه بصوته المعتاد وأخرج من جيبه دفتر حوالات ، وقع واحدة منها ، بمبلغ لا أذكره بالضبط ، ولكنه كان الثمن الذى دفعه للحصول على .

وما كان أشد عجبى حينما رأيت أن حبيب السهلبادى يملك خمسة جياد عربية ، وسبعة حمير قبرصية ، سبقتنى إلى الإقامة فى اسطبله ، منذ أشهر معدودة .

وهكذا صار حبيب السهلبادى من كبار الأغنياء فى البلاد ، وزاد بذلك واحداً عدد الذين يؤلفون شركة الاستثمار والاستغلال المساهمة المحدودة .

ولكننى لاحظت ، فى إحدى حفلات الجيمكانا ، أن رئيس الشركة قد فارقه تفاؤله ، وامحت من وجهه معالم البشر الذى كان يزينه . ثم سمعته يقول لزوجته التى استرضاها منذ أيام ،

إذ قدم إليها عقداً من الألماس ومعطفاً من الفرو ، لا يقدران بثمن :

— « يا عزيزتى ، بت أخشى على هذه الشركة أن تزول ! »

فتسأل المرأة بلهفة وجزع :

— « ماذا تقول ؛ هل يعنى ذلك أنك تخشى الإفلاس يا عزيزى ؟ »

فيضحك رئيس الشركة ضحكته التى اشتهر بها ، فى سهلباد وخارج حدود البلاد ، بلقب « النسر الأصفر » لما تنم عنه تلك الضحكة من سخرية بالغة ، وقال :

— « الإفلاس ؟ وهل يخشى الإفلاس من يملك جميع موارد البلاد ، ويسيطر حتى على أفكار العباد ؟ لا لا ! يا عزيزتى ؟ وإنما أخشى على الشركة من هذا . . . الدساس ! أنه كالبومة عنوان شؤم !

* * *

ولم يمض إلا أيام حتى صح حدس رئيس الشركة ، ووقع المحذور . وصادف أن عدد أعضاء شركة الاستثمار والاستغلال قد بلغوا فى ذلك اليوم ألفى رجل وامرأة ، موزعين على مئتى عيلة ، يجمع بينها رحم أو نسب ، من قريب أو بعيد . فاعتقد رئيس الشركة أنه قد حق عليها القول وحان أجلها . إذ

كان معلوماً لدى أهل سهلباد فى أساطيرها المتوارثة ، منذ أقدم العصور ، أنها « تؤلف ولا تؤلفان » .

تلك حكمة يرددها الناس ، ويفسرها قوم بأنها تعنى أن عمر الدنيا لن يتجاوز حدود الألفين من السنين . ولكن رئيس الشركة المتطير كان يرى أن مدلول تلك الحكمة لا يتجاوز نطاق شركته . . . فأعضاء الشركة فى رأيه قد يبلغون الألف أو يزيدون حتى حدود الألفين ، ولكنهم لا يبلغون هذا الرقم النهائى . فلما أخبره رئيس المحاسبات بأن عدد المساهمين قد صار ألفين بالضبط ، تشاءم رئيس الشركة ، وانقبضت نفسه . وسرعان ما بدا له أن تشاؤمه كان فى محله . فقد انهارت الشركة الكبرى على الرؤوس فجأة ، كما ينهار بيت من رمل أو ثروة جمعت من حرام . وكانت نهاية الطاغية .

١٩٥١/١٠/١٦

رسالة خطيرة

أتيح لزيزى ما لم يتح لسواه من الطيور . فقد اصطاده آخر وريث لعرش الجبل الأسود ، فى إحدى غابات النمسا البديعة ، وقادته الظروف إلى هذه البلاد ، حيث قضى نحبه ، فكان بذلك اسعد أبناء جنسه ، إذ ولد فى اروع بيئة ، ومات فوق أجمل أرض .

وقد حدثتنى بأمره صديقة له ، حفظت ذُكراه وذكرياته ، وكنت قد عرفتها قبل الحرب العالمية الثانية مربية لابن الوزير ، لا تكل عن التحدث عن وطنها ، وعن مقارنة ما عهدته فى ذلك الوطن البعيد ، بما تشاهده فى بلادنا هذه التى لم يخلق الله مثلها فى البلاد .

قالت متيلدا ، وهى واقفة إلى جانب جثة « زيزى » المسجاة ، والدمع فى عينيها العسليتين يترقرق كالدم تحت بشرتها الشفافة :

— « فى مسقط رأسى ولد زيزى . . . هناك فوق السفوح الخضراء . ولم يكن يخطر ببالى أن ألقاه هنا ، تحت سماء هذه البلاد الجميلة ، بعد أن أفنيت أجمل سنى عمرى فى تربية

أولادكم، وكدت أنسى ، فى هذا الوطن الثانى : أهلى ووطنى . ولكن شاءت الأقدار أن لا أحرم من كل ما له صلة بذلك الوطن الأول الذى رأيت فيه النور ، منذ أربعين سنة ، وعرفت الحب ! »

هنا تبسمت برغمى وبرغم الموقف الفاجع ، حينما كشفت متيلدا لى عن سر عمرها . وقلت :

ــ « منذ كم سنة أنت فى لبنان ؟ »

فأجابت متيلدا ، وهى تسوى شعرها بيد خلت من التجاعيد :

« منذ عشر سنوات ، ولكنى غادرت وطنى قبل ذلك بعشر سنوات ، إلى البرازيل ، حيث عشت فى خدمة « نبى » القرن العشرين الدكتور شنايدر الذى عالجنى ، بطريقته النباتية ، وشفانى من الأمراض العصبية التى كانت تنتابنى ! »

وتوقفت متيلدا عند هذه الذكرى، لحظة ، ثم أشارت إلى جثة الطائر المسكين ، وقالت :

ــ « حينما سافرت رئيسة الجمعيات المتحدة ، منذ أربعة أشهر ، إلى الجبل الأسود، رأت أن تفاجأنى بهدية نادرة . . ورخيصة بالطبع ، فاختارت لى هذا العصفور الجميل . ولا أكتمك إننى سررت بهذه الهدية ، أضعاف ما تتصور ، لأننى وجدت فيها قطعة من وطنى ، وبعضاً من أهلى .

وخيل إليّ أن متيلدا مسحت بمحرمتها ، الصغيرة الحمراء ، دمعة تسللت من بين أهدابها الكثيفة الطويلة. ثم قالت ، وهى تشير إلى زيزى بأصبعها الدقيقة :

— «انظر إلى جسده الرقيق ، وريشه الفستقى ، فى صفرة الشفق عند المغيب ، إنه اللون الذى كان يستهوينى فى صباى ، فى بلادى . فكنت أتمنى أن يكون لى منه مئة ثوب وثوب ، أرتديها ، كل ساعة ثوباً ، وأنسجم مع الألوان المحيطة بى ، كى أفنى فى الطبيعة ، كما تفنى الفراشة فى الأزهار ! »

قالت متيلدا هذا ، ثم مسحت طرفى عينيها بمحرمتها ، وتابعت حديثها :

— « فى بلادى تألف الطيور الإنسان ، فتتساقط على شرفات المنازل ، وتشاركنا طعامنا وشرابنا ، بل كثيراً ما كنت أمد لسانى لأحدها بقطعة من الطعام ، فيقبل الطائر عليّ ويتناول تلك القطعة من بين شفتى . . . فلما جاءنى زيزى شعرت بأن نفسه لم تبرح يغمرها ذلك الاطمئنان ، على الرغم من القفص الرهيب ، الذى زعزع إيمانه بنبل مقاصد الإنسان .

وقد أحطت زيزى بكل أسباب العناية ، ولكن الأيام كانت تفقده تدريجياً ذلك الهدوء النفسى ، فيستبدل باطمئنانه حذراً ، وبطيبة قلبه خبثاً ومكراً . وسرعان ما أصبح كطيور

بلادكم ، يرتجف ذعراً إذا تراءى له شبح رجل ، أو خيال امرأة .

وقد خيل إلى أنه قال لى ذات يوم بعينيه السوداوين الذكيتين ، ومنقاره اللبنى اللطيف :

— « أما سمعت هذه الطلقات الداوية ، تتجاوب من حين إلى حين ، حتى بين دور السكن ، وفى حدائق المنازل الخاصة؟ لقد رأيت عدداً من إخوانى الطيور يسقطون بنيران ابن الجيران؟ وعدداً آخر يقتلهم الرعب من « رصاص » « الأفراح » ؟

وتلتفت متيلدا إلىّ وشعرها الأسود الفاحم يداعب كتفيها الدقيقتين ، ككتفى فتاة فى الثامنة عشرة ، وتقول :

— « لا تنسَ أن زيزى قد شهد الحرب العالمية الثانية فى أوربا ، ولكن الحرب هى الحرب ، فلا مجال للقول بأنه ألف دوى الرصاص فلا ينبغى له أن يجزع لسماعه ، فى أوقات السلم ! »

* * *

فى اليوم التالى رافقت متيلدا ، فى نزهتها اليومية ، من بحمدون إلى صوفر ، حيث كنت أصطاف ، وأستعد للدورة الأولمبية القادمة . وهناك انتحينا مكاناً فى فندق اشتهر بحديقته الجميلة وموسيقاه العذبة ، فما ألهت الأنغام المتجذدة ، ولا وقع أقدام الراقصين والراقصات ، رفيقتى المحدثة الممتازة ، عن استعادة

ذكريات زيزى ، وسرد مشاهداته ، فقالت :

— « هل حدثتك عن زيزى ، فى أثناء رحلته الطويلة ؟ »

ولما أجبتها سلباً ، وأنا أجرع آخر ما فى كوبى من شراب الرمان ، استطردت متيلدا تقول :

— « أشنع ما رآه زيزى هو صراع الديوك . . . هذا العمل الوحشى الذى يطرب لمرآه بعض الناس المتمدنين ، ثم صيد الحمام ، ذاك القتل المنظم للطيور الوديعة ، بسبيل التسلية ! ! لو بقى الحال على ما عهده الإنسان الأول ، من صيد الطيور الوحشية فى الغابات ، لهان المصاب . أما أن نجمع الحمائم الأليفة فى قلب المدينة ، لنطلقها جماعات وأفراداً ، فتكون هدفاً لرصاص اللاعبين ، فجريمة فى نظرى ، لا تقل بشاعة عن غيرها من جرائم القتل بالجملة ! »

وكانت الموسيقى تزداد عنفاً ، فيرتفع صوت متيلدا باستمرار حتى خيل إلىّ أنها صارت تصرخ صراخاً . فقلت لها ، وقد لاحظت أنها تكثر الالتفات نحو صديق جلس وحيداً بالقرب منا :

— « على ماذا تتآمران أيها الصديقان ؟ »

فأضحك متيلدا هذا السجع ، وكانت من الأجانب النادرين الذين تعجبهم فى لغتنا هذه الميزة الموسيقية التى يبالغ

البعض فى استغلالها . ثم قالت وهى تغمز بعينها التى إلى جهتى :

— «نتآمر عليك يا رضوان، ونضرب موعداً فى جبل لبنان !»

فضحكنا جميعاً ، وضاعت قهقهتنا المشتركة وسط عاصفة من التصفيق . أثارها الجمهور استحساناً لموسيقى العازفين . وخاصة هذه « البيانيست » التى يخيل إليك أن أصابعها الدقيقة آلات عاجية تحركها الطاقة الذرية .

* * *

انقطعت بعد ذلك اليوم أياما عن الاجتماع بمتيلدا ، لا كرهاً بلقياها ، وهى من أحبّ معارفى إلى ، بل لأننى صرت . أخشى أن تتطور علاقتى بهذه الفتاة ، وإن كنت من المؤمنين بأن « الصداقة » ممكنة بين كائنين مثلنا .

بل إن الصداقة بالذات . إذا نشأت بين رجل وامرأة ، كانت أمتن منها بين رجلين . وهى بالتالى أعمق وأصدق من الحب ، لأنها تولد لتخلد ، بينما لا يولد حب إلا ليموت .

وقد عشت ما عشت لا أستسيغ أن أزاحم الآخرين ، لأننى لا أغبط ولا أحسد .

ومتيلدا التى بلغت هذه السن ، تحت سماء الشرق الدافئة ، لا يمكن أن تبقى خالية القلب . وهى من النساء اللواتى يغريك بهن شىء غير جمال الجسم ، وغير جمال الروح ، شىء لا

تستطيع إذا حدثتها ، إلا أن يخرجك عن وقارك . فتميل إلى المرح ، وتشعر بقلبك ينفتح ، وبلسانك ينطلق ، وببشرتك تزهو ، بل تشعر كأنك قد عدت إلى الزمن الذى ينفقه أكثر الناس عابثين ، دون وعى ، ثم يقفون ، حين يصحون فوق قمة العمر ، للبكاء عليه ، رجاء أن يعود ، فلا يعود !

غير أنى وجدتنى ، بعد خمسة أيام ، أكلم متيلدا بالهاتف وأضرب لها موعداً ، فتوافينى إلى غابة صغيرة هى الحد الفاصل بين أراضى بحمدون ورويسات صوفر ، وكانت الشمس فى كبد السماء تصب أشعتها عمودية تكاد تحرق الرؤوس الحاسرة .

ولما وصلت متيلدا ، كانت تستر شعرها الأسود بخمار فستقى ، وتحمل فى يدها جزداناً أخضر بلون حذائها ، وثوبها الفضفاض فقلت لها :

— « أحسنت بارتداء هذا الثوب ، لأنه منسجم مع لون عينيك ، ومع هذه البيئة الفاتنة ! »

فابتسمت متيلدا وهى تشدّ على يدى شاكرة ، وقالت :

— « دعنا من الأطراء . . . ألهذا دعوتنى ؟ »

فأجبتها :

— « بالطبع لا ؛ ولكن لابدّ من اطراء النساء الجميلات . »

ثم بعد فترة تابعت كلامى جاداً .

— « اسمعى يا عزيزتى كلماتى الآتية ، وجاوبينى عليها بصراحة وإخلاص .

حينئذ اعتدلت متيلدا ، فى جلستها فوق الصخرة المطلة على الوادى الرائع ، المجاور ، وقالت :

— « كلى آذان ؟ فهات ما عندك !

— « يقال إن رئيسة الجمعيات المتحدة . . . هى رئيسة لجماعة أخرى أيضاً ، تعيث فى البلاد فساداً منذ زمن ! »

وسألت متيلدا جادة هى أيضاً :

— « ومعنى ذلك أنها رئيسة عصابة . . . للتجسس !

فقلت :

— « أنت قلت ! وعلى كل حال ، علمت أن زيزى وغيره من الطيور التى تجلبها معها . . . إنما هى رسل تحملها المعلومات الكافية . . . . »

حينئذ انتفضت متيلدا ، وقالت بحدة :

— « أبداً ، هذا غير صحيح ؛ بدليل أن زيزى المسكين . . . قد مات خوفاً ورعباً ! »

وقلت بدورى بالحدة نفسها :

— « وهل أنت واثقة من أن الجثة التى وقفنا بجوارها ... كانت جثة الطائر نفسه الذى جلبته لك « حضرتها » من ألمانيا النازية ؟ »

فبهتت متيلدا ، وأخذت تتحسس جبينها بيدها المرتجفة ثم قالت :

— «وهل عندك شك فى ذلك ! »

— «فقلت عندى ألف شك وشك ! فقد عثرت مصلحة مقاومة الجاسوسية ، أول أمس ، على الطائر الذى حدثتنى عنه وهو يحمل رسالة خطيرة . لم يحللوا حتى الآن جميع رموزها ! »

وما وصلت إلى هذا الحد ، حتى قامت متيلدا من مجلسها بادية الاضطراب ، ثم أخذت تجمع أشياءها بعصبية ظاهرة ، وودعتنى وهى تقول :

— «كن واثقاً أننى أبعد الناس عن الروح التى تحمل بعض البشر على التجسس . . . وما جئت إلى بلادكم إلا لتأدية رسالة إنسانية ! »

وقد ودعت متيلدا ، وفى نفسى شعور غامض بأن هذه الفتاة لا يمكن أن تكون من صنف رئيسة الجمعيات المتحدة ، كما يتهمها المكتب الثانى ، ما دامت تعتمل فى نفسها تلك العواطف الإنسانية . فالحب الذى تكنه للحيوان ، والحب الذى توحيه للإنسان ، عاصمان يحولان ، فى اعتقادى ، بين هذا الكائن الجميل وبين الخساسة .

وكان وداعاً لم يعقبه لقاء . ولكننى علمت فيما بعد أن متيلدا فضلت أن تترك البلاد . . . كى تصون كرامتها وكرامة البيت الذى عاشت فى كنفه ، تلك السنين الطوال !

٥ نيسان (أبريل) سنة ١٩٥٢

نصيحة بلا ثمن

«كان النظام الاجتماعي القديم يقضي بأن يرث الابن صناعة أبيه . فابن النجار نجار ، ولو كان ميالا إلى التجارة . وابن الطبيب طبيب ، وإن كان بفطرته حداداً موهوباً . غير أن الحربين العالميتين بدلتا كثيراً من هذه الاوضاع ، في بلادنا . وجاء الانتداب فجعل من مجتمعنا خليطاً ، لا تدري معه أهو مجتمع ديموقراطي أم مجتمع إقطاعي .

وفي كل ناحية تجد على ذلك دليلا .

ففي حقل العمل نرى الشبان ما برحوا — كما كانوا في عهود الاستعمار السابقة — منجذبين بقوة إلى الوظيفة أو الاستخدام . فلا ندري أذلك هو أثر الكسل الذي يستسيغه أكثر الناس في الشرق ، أم روح التواكل التي تقضي على نشاط الاجيال المتعاقبة . »

بهذه الكلمات استهل داود الامواجي حديثه ، في حفلة دعت إليها «ندوة الكلام» — هذه المؤسسة التي أنشئت حديثاً لتشغيل أبناء المهاجرين كيلا يلحقوا بآبائهم ، بعد أن تفاقمت

الهجرة و باتت خطراً يهدد كيان البلاد . وقد كان الموضوع الذى تناوله المحاضر طريفاً وملائماً ، فاستطاع ، وهو دكتور فى علم البيولوجيا ، أن يستأثر بانتباه المستمعين ، على الرغم من أن وجهه لا يوحى بالاطمئنان ، ولا تستمرئ الآذان صوته الرتيب وأسلوبه المتكلف .

* * *

حينما انتهى داود الامواجى من القاء محاضرته الطويلة ، التقيت به ، عند مخرج القاعة ، وهنأته — كما تقضى بذلك التقاليد — وقلت له :

— « الحقيقة أنك يا أستاذ داود من أكفأ الرجال لشغل أحد المناصب الاجتماعية ! . . فلماذا لا تطالب ذلك . . . ؟ »

وكان لكلماتى هذه — التى القيتها لأعلم مبلغ إيمانه بما قال وردد — وقع السحر فى نفس الامواجى . وما هى إلا لحظات شمخ فيها بأنفه ليشعرنى أنه مقدر نفسه فوق ما يقدره رجل مثلى من عبيدالله المتواضعين ، حتى عاد إليه شعوره بالواقع . فانحنى على أذنى — فهو أطول منى ببوصتين وربع البوصة — يردد كلمات الشكر ويتمتم :

— « أنا مستعد فى كل وقت . . لكل خدمة . . وإننى ممتن لك طول الحياة . . . إذا أمكن أن يكون معاشى . . »

فطمأنت المحاضر الفيلسوف إلى أن نواياى نحوه حسنة جداً . وما عليه إلا أن يقدم طلباً إلى الشركة المختصة ، كى يحصل على المراد ، ولا سيما أن تلك الشركة كانت تجمع مستخدميها وموظفيها ، من هنا وهناك ، وتمنحهم الرواتب الضخمة ، على اعتبار أن الأعمال التى يدعون للقيام بها أعمال موقتة ، لا تستلزم معرفة ولا ضمانة أخلاقية .

* * *

مضت سنوات ثلاث ، انقطعت فيها عن حضور المحاضرات ، التى صارت وسيلة من وسائل المتاجرة بالعلماء والأدباء . وإذا بصاحبنا الأمواجى ، وقد أصبح من كبار ... المستخدمين فى إحدى شركات النفط التى تكاثرت فى البلاد — يفاجئنى يوماً بزيارته . فأرحب به ويبادرنى بهذا السؤال ، بعد التحيات والإعراب عن الاشواق :

— « دخلك ما هى درجتك أنت الآن ، وكم يبلغ راتبك؟ »

وابادر بدورى إلى تقديم سيجارة إلى حضرته ، مصحوبة ببسمة ، حاولت أن لا تنم عن شىء مما اعترانى من سخط ، لدى سماع سؤاله الذى لا يدل على شىء من الذوق والكياسة . فيعتذر « مدير المراسم الخارجية لدى الشركة الهمايونية للنفط العالمى » — وهذا هو لقبه الجديد كما أعلنه للحاجب . . — عن تدخين

لفافتي اللبنانية . . . لأنه تعود على السجاير الأمريكانية ، من نوع لا أذكره ، لأنه ليس من الأنواع الشائعة .

ثم يتابع الأمواجى إلقاء أسئلته ، وهو يخرج من علبة ذهبية إحدى تلك السجاير ، ذات العقب الفليني ، على النحو التالى :

— « متى ترقيت آخر مرة ؟ . . أعنى كم يبلغ الآن راتبك في الاساس ؟ . . وكم هو عدد أولادك ؟ . . ومتى دخلت الوظيفة فى هذه المؤسسة ؟ اعنى ما هو عمرك الآن ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ . . . »

سلسلة من أسئلة آخذ بعضها برقاب بعض .

ولم يكن داود الأمواجى من الأشخاص الذين يسهل صرفهم عن الفكرة التى تخطر لهم . وما كان بامكان إنسان مهذب أن يتجاهل أسئلة يلقيها عليه « مدير المراسم . . . » وعيناه مغروزتان فى عينىّ ، كأنه يقرأ فى أعماق نفسى الأسرار التى بخلت بها شفتاى . وعدت أحاول الاعتذار ببسمة كانت تضيق وتتضاءل حتى صارت مشروع ابتسامة . . . تنطق بالاشمئزاز أكثر مما تنم عن الرضا . ولكن الأمواجى لم ييأس ، فأستأنف حديثه وهو يتقبل منى فنجان القهوة ، كما انني لم أيأس من صرفه عن الخوض فى هذا الحديث ، باللطف واللين ، قبل أن ألجأ إلى

أسلوب آخر .

وأخيراً امتلأ الكأس وفاض . . بعد سؤال ألقاه الأمواجى لم يكن ليخطر لى ببال ، إذ قال :

« لو تزوجت يا صديقى واحدة من زميلاتك فى الشركة . . ألم يكن ذلك أوفق ، إذ كنت تضم راتبها إلى راتبك ؟ »

* * *

تحملت بصبر نتائج هذه الزيارة السيئة فى الأعصاب والقلب والروح . ولن أبوح لأحد بسر الوسيلة التى لجأت اليها للتخلص بسلام من داود الأمواجى فى ذلك اليوم . فإننى أوثر أن أترك له هو أن يعلن عن ذلك ، إذا كان قد أدركه ، وإلا فالسر بيننا يبقى سراً . . . ولكننى لا أجد بأساً من القول أن الأمواجى لم يقم اكثر من نصف دقيقة بعد إلقائه سؤاله الأخير .

وتعددت لقاآتى بعد ذلك بالأمواجى ، فى الطريق تارة وفى السيارات العامة طوراً . ولكننى لاأذكر أنه تطرق فى أحاديثه إلى موضوع غير موضوع الرواتب ، والترقيات ، وسنى الخدمة فهو لا يعيش إلا ليقبض راتبه ويسعى فى سبيل الترقيات ، مهما كلفه ذلك من تضحيات .

وفى المرة الأخيرة التى لقيت الأمواجى فيها ، بادرنى بسؤاله التالى :

— « لو عرضت عليك الشركة أن تمثلها فى . . . الفيلبين ، أكنت تغادر لبنان الجميل لتعيش فى تلك البلاد النائية ؟ »

أدركت فوراً أن الأمواجى يسألنى عن أمر يهمه شخصياً . وعلى الرغم من حسن طويتى ، تعمدت للمرة الأولى أن أشير على إنسان بما لا أرتضيه لنفسى ، وقلت مبرراً هذا السلوك أمام وجدانى :

— « على الأقل . . يتعلم فى الغربة بعض قواعد الذوق ، وتسمو أهدافه فى الحياة ! »

وقد سافر داود الأمواجى إلى الفيلبين ، وودعه فى مطار بيروت الدولى ، عدد من زملائه موظفى « شركة النفط » ، وزوجته التى وعدها باستقدامها فور استقراره هناك ، وأخت زوجته الجميلة الفاتنة ، التى لاكت بعض الألسن الخبيثة ، سمعتها منذ عهد غير بعيد . ولا أدرى ما الذى حملنى على الاشتراك فى هذا الوداع ، أهو الرغبة فى بلوغ مرتبه اليقين ، أم لذة الإعلان التى عناها الشاعر إذ قال — « ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر . . » أم عاطفة أخرى لم أتبينها حتى هذه الساعة .

ولكننى أعرف من نفسى نزعتها إلى عدم الشماتة : بل أعرف على العكس أننى أسرع الناس إلى مؤاساة خصمى إذا أصيب . فالتسامح شيمة يوحى به لجميع المواطنين تاريخ لبنان.

* * *

ولما اندلعت نار الحرب فى كوريا ، قرأت فى إحدى الصحف اليابانية خبراً سرنى بمقدار ما غمنى إعلان تلك الحرب. فقد أوردت الصحيفة اسم داود الأمواجى ، على أنه التاجر الوحيد الذى استطاع أن يغادر مدينة ساؤول ، فى الوقت المناسب ، حاملا معه زوجته وأختها ، وبضاعة قدرت بنصف مليون دولار ، فضلا عن الأموال النقدية والسندات المالية — دون أن تذكر الصحيفة مصدر هذه الثروة الضخمة ، أو تشير إلى أساليب جمعها — لأن المال فى جميع البلاد لا رائحة له .

سرنى هذا النبأ مرتين — مرة لأننى اتصلت ولو على صفحات جريدة « بصديق » الأمواجى ، فلم يسألنى عن راتبى وسائر شؤونى الخاصة . ومرة ثانية لأن هذا « الصديق » أصاب ما أصابه من نجاح بفضل . . . نصيحة أسديتها إليه . وكان جل قصدى منها . . . أن أخفف عن بلادى شيئاً من روح الكسل والاتكال ، وبعضاً من هذا العلم الأجوف ، الذى تحشى به

الأدمغة ، وتتكاثر به الشهادات ، صحيحة ومزورة ، فلا تهضمه العقول ولا يتحول إلى جزء من كيان الإنسان ، يدفعه إلى العمل المنتج .

وكانت نصيحة ، فيما خصني ، بلا ثمن ! غير أنني أرى مبلغ الربح الذى تجنيه بلادى من « تصدير » أمثال هذا الإنسان ، والاحتفاظ بالفلاح النشيط ، والعامل المفيد .

١٩٥٠

قضية رابحة !

منذ نشأ نادر صابر ، أعتقد أن هذا الكائن اللطيف الذى يألفه الناس ، لطول ما عاشرهم وعاشروه ، هو ألد أعداء الإنسان . وقد مكنت هذه العقيدة فى نفسه مقررات منظمة الصحة التى أنشئت بعد الحرب العالمية الثانية وجاهرت بهذه الحقيقة ، دون مواربة أو تلاعب بالكلمات ، شأن السياسيين المحترفين .

ولم يكن يخطر ببال نادر صابر أن ما أعتقده كان مخالفاً لبعض ما يؤمن به الناس من خرافات وأساطير . فقد نصح له شيخ الحى ، وهو رجل جليل يحترمه عموم الخلق ، قائلا وهو يقطع الكلمات :

— « يا ابنى مالك وما لهذه الكائنات . . . اتركها تسبح لله ! »

ويجيب نادر صابر بسذاجة :

— « ولكنها كائنات مؤذية . . . إنها تنقل إلينا أكثر الأمراض ! »

ويقول الشيخ محنقاً :

— « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، فدع عنك هذه

الوساوس واستغفر الله ! »

ويحاول نادر صابر أن يتظاهر بالإقتناع ، ويكف عن محاربة تلك الحشرات التى تسبح لله ، بالفتك بأفضل مخلوقاته . ولكن نفسه الأمارة . . . بالخير تعود فتسول له محاربتها والقضاء عليها ، أينما وجدت . فيحمل نادر صابر مديدته ، ويدور فى البيت ، ثم يدور ، وهو يصطاد تلك الحشرات القذرة : فوق المائدة والسرير ، وعلى الجدران ، أو على زجاج النوافذ والأبواب ، وفوق الأرض أو حول قناديل الغرف وثريا الدار .

وتنبرى لنادر صابر أم مبروك الخادم العجوز التى انتقلت معه ، من بيت أبيه ، فى جهاز العرس وتقول :

ـ « ما هذا يا ولدى ! حرام عليك ! ألا تعلم أن « ستنا » عائشة هى التى تمنت وجود هذه الكائنات ، فخلقها الله كى تتسلى بها ؟ »

ويقهقه نادر صابر حتى يكاد يبح صوته . ثم يقول :

ـ « يا أم مبروك ، أين عقلك وكيف تقولين هذا القول دون تفكير ؟ وهل خلقت الأفاعى مثلا لتسلية « فقراء الهند » ، أو تيسيراً لمهمة « الحواة » فى مصر ؟ »

وتتبرم أم مبروك دون أن تستطيع جواباً ، وهى تجمع بمكنستها ضحايا نادر صابر ، الذى لا يكل ، ولا يمل من

محاربة تلك الكائنات ، والقضاء على جموعها التى تتكاثر فى المدينة ، وفى القرية على حد سواء ، ويقول لأم مبروك :

ــ « انظرى إنها تسابقنا إلى طعامنا وشرابنا ، وتسبق الضوء إلى الحركة والأذى ، وتبز كافة الأحياء فى وفرة النسل !

ثم يقول ، بعد صمت قصير ، استدعاه توثبه للصيد :

ــ « لك يا أم مبروك جائزة . . . خمسة قروش عن كل مئة تقتلينها من هذه الحشرات المضرة ! »

وتبرق عينا أم مبروك فرحاً . ففى إمكانها أن تكسب بعد اليوم أجرة إضافية لا تقل فى الأسبوع الواحد عن ثلاث مئة قرش. أما إذا انصرفت إلى محاربة الذباب ، فى أوقات فراغها كلها ، فانها ستكسب ضعفى أجرتها الشهرية . وتسرع العجوز إلى المطبخ ، فتجرب قدرتها على مكافحة هذا العدو الخطير ، فتقتل دفعة واحده عشر ذبابات ، كن يغنين أنشودة المرض ، فوق قمامة الأقذار المكشوفة .

ويتبع نادر صابر أم مبروك ليرى ما تصنع ، وهى التى تعودت أن لا تفارق المكان الذى يكون معلمها فيه ، كأنها الحماة الغيورة ، لا تدع لابنها وزوجته فرصة ينفردان فيها . فيرى نادر صابر مشهداً مؤثراً : لقد ابتكرت أم مبروك وسيلة جديدة لاصطياد تلك الحشرات المؤذية : إنها تنثر نقطاً من الدبس ،

فوق سطح « المجلى » ، وتبتعد قليلا حتى تتخدع الذبابات . وما هى إلا لحظات حتى تتهاوى جموعهن على تلك الأقراص الد غيرة من الحلوى. فتقبل أم مبروك بمصيدتها ، وتهوى على تلك الجماعات النهمة ، فتقتلها . وهى غارقة فى النعيم .

ويصفق نادر صابر فرحاً واستبشاراً ، ثم يصرخ داعياً أهل البيت أجمعين :

— « تعالوا ! تعالوا ! لقد انتصرت قضيتنا ! أنها منذ الآن قضية رابحة ! »

وتقبل زوجة نادر صابر ، وابنه الكبير ، وابنته الصغيرة ، ليروا ما الخبر : فيشاهدون أم مبروك وهى تفتك بتلك الذبابات فتكاً ذريعاً ، ثم تجمع ضحاياها بالمكنسة والمجرود ، والدمعة فى عينيها . والبسمة على شفتيها . ثم تتوقف لتحسب فتجمع وتضرب ، وتقول بلهجة الظافر مخاطبة نادر صابر الذى لا يصدق عينيه :

— « هات ! لقد استحق لى عندك عشرون قرشاً ! »

* * *

ولم يكن نادر صابر أشد سروراً من سائر أفراد الأسرة ، ولكن سروره كان من نوع آخر . فقد فاز بعد طول الصبر والنضال ، بإقناع هذه العجوز ، بوجهة نظره . فكان فوزه

مزدوجاً : فوزاً على ما تحجر فى دماغها من خرافات ، وفوزاً آخر بحملها على العمل بما تعلم . فإن أكثر الناس يجعلون بين العلم والعمل حاجزاً لا يتخطونه أبداً . فيذهب علمهم مع الريح.
وتقبل أم مبروك وهى تبسم بسمتها العريضة التى تستقبل بها الأعياد والأحباب ، وتقول :

ـ « ما قولك يا نادر لو اتفقنا مع الجيران . . . فهذا نبع لا ينضب يا ابنى . نقتل مئة فيجىء ألف ؟ »

فتعجب الفكرة نادر صابر والجميع ، فيقررون أن يتصلوا بالجيران ، ليقنعوهم بالانضمام إليهم ، فى محاربة الذباب ، والقضاء عليه .

ويقول ابن نادر صابر المتحمس لهذه المهمة كأبيه :

ـ « وماذا نسمى جمعيتنا ؟ »

فتجيب أم مبروك على الفور :

ـ « عصبة الأصحاب لمكافحة الذباب !

ويصفق الحضور إعجاباً باللقب المرتجل ، وبسرعة البداهة لدى أم مبروك ، وهم لا يدرون أكان ذلك منها بدافع الربح المأمول ، أم بباعث الإيمان المخزون .

وكان فصل الربيع يقترب ، فيلملم الشتاء أثوابه ، لينكفىء عن سواحلنا . وتدب الحياة مع الدفء فى بيوض الحشرات

الكامنة ، وفى أجسادها الخدرة . فيرى نادر صابر أن هذا الوقت هو خير الأوقات للقضاء على تلك البيوض قبل أن تنفقس ، وللتخلص من تلك الحشرات قبل أن تهب من رقادها الطويل .

فيجد فى أم مبروك ، وفى سائر عجائز الحى ، وأولاده وجميع أولاد الجيران ، مساعدين مخلصين ، وأعضاء عاملين .

وقد خشى نادر صابر ، فى حين من الزمن ، أن يقع الصدام بين هذين الجيلين من مواطنيه ، أو أن ينفد الاعتماد الذى خصصه من موازنته لهذا الغرض ، قبل إنجاز المهمة الخطيرة التى أخذتها « العصبة » على عاتقها . فكان يعزيه ، عن جهوده المضنية وعن تلك الخسارة ، ما كان يصيبه كل يوم من ترضية معنوية . فهو يرى أن من جمعهم حوله ، للعمل على صعيد واحد ، فى سبيل هدف واحد ، لم يختلفوا قط على أمر ، ولا يمكن أن يختلفوا أبداً . فهم جميعهم ، من الجدة إلى الحفيد ، ومن الأب إلى الابن ، إنما يعملون مؤمنين ، ويسعون إلى هدفهم متجردين . فيجد كل منهم فى مكافحة هذه الحشرات المضرة اللذة نفسها التى يجدها نادر صابر ، وهو يعمل بروحية الساعى إلى الخير والعامل فى سبيل النفع العام .

* * *

أشرقت شمس الربيع على حى « عصبة الأصحاب لمكافحة

الذباب » ، فى هذه السنة ، فلم تشاهد حشرة أو أثراً لتلك الكائنات القذرة . فكان سكان الأحياء الأخرى ، كلما انتقلوا إلى ذلك الحى ، يشعرون شعوراً شبيهاً بما يجده المرء كلما انتقل من جو خانق إلى مناخ يتنفس فيه الصعداء ، بحرية ولذة . فيتساءلون عن السر فى ذلك ، وعما أكسب حى « الأصحاب » تلك الخفة فى الهواء ، وذلك الطيب فى الأجواء ، وهذا النور الذى يتلألأ على وجوه سكانه ، والصحة التى يزهو بها أولادهم . حتى انتفت من بينهم الأمراض وتوفرت لديهم الأموال ، واختفى من بينهم تجار الأدوية ، وسماسرة الموت ، ووكلاء عزرائيل .

ويبدأ فى تلك الأحياء همس ، لم يطل الأمر به حتى صرح وبان ، فأصبح حديث المجتمعات والمقاهى والأندية . فقال بعض الناس : « إن حى الأصحاب » حى مقدس ، لأنه مسقط رأس « الرجل الصالح » الذى ملأت أخبار معجزاته الصحف وانتشرت فى الآفاق .

وقال قوم آخرون :

— « إن حى الأصحاب . . . حى محظوظ لأنه الحى الذى يقيم فيه الحاكم . . . لذلك تحصر البلدية جهودها فى السهر على تحسين حاله . »

وتسمع أم مبروك تلك الأقوال والمزاعم ، فتبتسم ، وهى

تغمز بعينيها اللتين اكتسبتا، منذ عهد قريب. لمعان المعرفة، وتنبه الوعى. ثم تقول :

– « هذا الحى . . . حى كسائر الأحياء فى المدينة . . .

لا هو مقدس ولا هو محظوظ ؛ وإنما هو حى نظيف ! »

ولما سمعت أم سليم، وهى أقرب الجارات فى الحى المقابل، هذا الكلام، اعتبرت ذلك تحدياً من أم مبروك موجهاً إلى شخصها، وإلى سائر سكان الحى الذى هى منه. فدعت أم سليم أهلها وجيرانها وأصحابها إلى اجتماع كبير، عقدوه فى منزلها واتخذوا فيه مقررات خطيرة، أبقوها طى الكتمان، على مثال مقررات المؤتمرات التى كان يعقدها بعض الملوك والرؤساء. غير أن هذه المقررات لم تبق سرية، إذ تلمس سكان الحى بعد قليل آثارها الخيرة. فقد كانت المقررات تهدف إلى القضاء على جميع البؤر والآبار والمستنقعات التى تعيش فيها الحشرات، وتتكاثر. ثم فى تقديم كل ساكن من السكان يلقى أقذاراً فى الشارع أو يقضى فيه حاجة من حاجاته الطبيعية . . . إلى محكمة خاصة . . . ألفوها فكانت كمحكمة قراقوش . . . إلا أنها استطاعت أن تقضى على تلك العادات السيئة المخجلة، وهذا الاستهتار المعيب. فعادت الشوارع وزوايا الجدران، كسائر الأشياء الطبيعية عندنا، جميلة جذابة، تعبق بريح الأرض

الطهور ، ويفوح منها عطرها الزكى . .

* * *

ومضى عام وبعض عام ، فإذا جميع أحياء المدينة تنتظم من حيث تدرى ولا تدرى فى « عصبة الأصحاب لمكافحة الذباب » . وتشرق شمس آذار ذات يوم ، فى تلك السنة ، لترى عجباً وتسمع عجباً : لقد تحررت المدينة كلها من ربقة الشرور والأمراض ، وأقفلت السجون والصيدليات أبوابها ، وتحول الأطباء عن وصف العلاجات إلى السهر على نمو الأطفال ، وعلى تخفيف آلام الشيخوخة ، والعناية بالأمهات الحوامل والمرضعات . ولا سيما بعد أن صارت المدينة بأسرها تعج بالأطفال الأصحاء ، وبالشيوخ غير العاجزين .

وانتشرت الحدائق العامة هنا وهناك ، كما شيدت المكتبات العمومية ، وأقيمت فى الساحات الفسيحة الأنصاب والتماثيل . فهذا نصب لتكريم الأمهات ، وذاك تمثال لتقدير الآباء . وكان أعظمها وأروعها أثر تذكارى ، أقيم اعترافاً بفضل مخترع « البلسم الذرى » ، وهو آخر ما توصل إليه العقل البشرى ، منذ اخترع الحرف . فقد جاء هذا « البلسم » دواء شافياً لما تحدثه القنابل الذرية ، لأنه يعيد الذرة ، إلى ما كانت عليه قبل تفكيكها ، فترجع الأشياء التى تأثرت بالانفجار إلى سابق تكوينها .

وكان مخترع البلسم الذرى أحد أعضاء « عصبة الأصحاب » . لذلك نقشوا ، حينما بنوا ذلك النصب لتكريمه ، صورة شاب يحمل بيده مصيدة ، ومن حوله صبية وعجوز وغلام وفتاة ، تكريماً للجنسين وللجيلين معاً ، ودعوة إلى تضامنهم وتعاونهم دائماً وأبداً.

ولئن لم ينقشوا فى الحجر أسماء هؤلاء الأبطال المجهولين ، فقد شاعت فى المدينة أسماؤهم ، وصارت لطول ما رددها الناس كأنها صلوات المؤمنين ، أو أمانى المتعبدين . . . تخرج من بين الشفاه أنغاماً لا أسماء ، ولهاثاً لا كلمات .

وقد جاء فى بعض تواريخ المعاصرين أنه كان على كل طفل ، قبل أن يدخل المدرسة ، أن يمر أمام ذلك الأثر التذكارى ، فيحنى رأسه إجلالاً ، ويتزود من نفسية صاحبه ببعض ما يعينه فى الكفاح وفى السعى إلى النجاح ، حتى تكون حياة كل إنسان ، فى هذه المدينة الخالدة ، قضية رابحة .

١٩٥٣/٢/٢٦

يوم انكشف الغطاء

لم تعرف لها أماً ولا أباً . ولكنها تذكر أن أخاها الوحيد ، الذى سبي معها ، قد قتل بين ذراعيها ، وهى تولول رعباً ، حتى تمزقت حنجرتها ، كما تمزق جسده الرخص تحت وابل من سهام الغزاة .

وتنظر « دادا » بعينيها الجاحظتين ، فى حمرة مخيفة ، وهى مغيظة محنقة ، ثم تكشف عن صدرها الضامر فتقرعه بيديها ، وهى تقول بحرقة وألم :

— « يا رب يا عزيز . . . عبيدك الإنجليز ! »

* * *

كان ذلك فى إبان الحرب العالمية الأولى . وكانت « الدولة » تعلن انتصاراتها على الحلفاء بصورة تثير الريب فى نفوس العقلاء . وسرعان ما تجسد ذاك الشك فى كلمات أطلقتها بعض الأفواه الجريئة ، فتسربت من فم إلى أذن ، وشاع فى الناس ، وأوساط الموظفين خاصة — أن كل انتصار معلن يوازى هزيمة محققة .

وكنا أطفالا لا همّ لنا إلا إزعاج من فى المنزل . وكانت

« دادا » قد انتقلت إلى بيتنا فى « جهاز » امرأة عمى . فكان يطيب لنا أن نهزأ من لهجة هذه الزنجية ، ومن سحنتها السوداء ، ومن جلستها الغريبة ، خلف نارجيلتها ، التى تكاد تساويها طولا وضخامة . فإذا بلغ منها الغضب مبلغ العزم على صفع الذى يتحرش بها ، اضطربت وهى تكبت شعورها الثائر ، كأنها الماء خضضته فتعكر ، وتغيرت معالم وجهها البنى الدقيق ، واصطبغت عيناها الصغيرتان بحمرة تزيد فى شعورك بقبحهما . ثم ناجت الله ، وهى تضرب بقبضتها على صدرها ، فيمتلئ فمها بزبد تقذفه رشاشاً أبيض ، وهى تردد :

— « يا رب يا عزيز . . . عبيدك الإنجليز ! »

حينئذ كنا نتفرق عنها ، والرعب ملء قلوبنا . فقد أكد لنا صبيان الجيران أن الدادا تأكل الأطفال . . .

* * *

مضت سنة وبعض السنة ، والحرب قائمة بيننا وبين « الدادا » على أشد ما يكون الخصام ، بين صبية لا يغادرون المنزل ، إلى مدرسة أو حديقة عامة ، وبين مخلوقة شاذة فى مظهرها وحديثها ، تجلس أكثر يومها خلف النارجيلة ، لتمج دخانها تارة ، وتغفو تارة أخرى . فيعلو لها فى الحالتين زعيق كصفارة الإنذار ، وغطيط كرغاء الجمال .

والحرب فى ساحاتها تحتدم ، ويقترب الحلفاء من حدود لبنان ، ويشتد الضيق وتنتشر المجاعة والأمراض والأوبئة . ودادا كعود السنديان تزداد على مر الأيام صلابة وقسوة ، ولا تفتأ تدعو للإنجليز أو عليهم ، كلما استغضبت أو أغاظها حادث لا يغيظ سواها . لا يهمها من حوادث الأيام إلا أن تملأ بطنها على ما يرام ، وأن تدخن نارجيلتها بسلام ، بعد أن تنهى عملها اليومى ، الذى كان من أبسط الأعمال . فقد كانت تشكو ألماً فى مفاصلها ، يزداد كلما باشرت عملا يدوياً ، وامرأة عمى عروس ، يقضى العرف بمداراتها ومداراة حاشيتها فى بادئ الأمر .

وفى يوم سمعنا أمى ، ربة المنزل ، تشدد على وجوب اشتراك الجميع فى خدمة البيت .

وكان أفراد العيلة قد بلغوا الثلاثين ، بين طفل وامرأة ورجل ، من أبناء وبنات ، وعمات وخالات وخدم وضيوف . الأمر الذى أغضب « العروس » وأثار كوامن حسدها . فنشبت فى المنزل مشاحنات أدت إلى قسمته إلى أحزاب متنازعة . ولئن ظل الخدم محتفظين بحيادهم ، فإن واحداً منهم لم يكن يرى رأى زملائه فى السكوت عن « دلال » دادا ، التى لا تؤدى خدمة تذكرهم ، وهى العبدة المشتراة بدرا معدودة . . . ويقول

هذا الخادم لرفاقه ينفخ فى نفوسهم روح الثورة :

— « أنا . . . ابن الشراريبى ، ابن العز والجاه ، لا أقصر فى تأدية واجباتى كخادم ، بعد أن كنت سيداً فى قومى ؛ فلماذا لا توزع الأعمال بالتساوى ؟ »

فتجيبه لميا المربية بحماسة وغنج :

— « وأنا بنت الذوات . . . اضطررت للاستخدام بعد أن فقدت أهلى جميعهم ، وأن بقيت والحمد لله امرأة شريفة . . . ! »

وكنا ، نحن الصغار ، جنود تلك الأحزاب . نتخاصم من أجل كلمة أو نظرة ، ونتضارب بسبب ودون سبب ، حتى باتت الحياة فى المنزل لا تطاق . وتحتم على والدى أن يتدخل فى الأمر ، بعد أن صارت مشاكلنا تتعب رأسه ، أضعاف ما تتعبه مشاغله خارج المنزل . فرسم خطة دعا الجميع إلى تنفيذها بحذافيرها ، تحت طائلة العقاب . وكان نصيبى أنا وإخوتى أن نقضى نهارنا وليلنا برعاية دادا .

* * *

ولن أنسى ما حييت الليلة التى قضيتها ، يوم نامت دادا معنا فى الغرفة ، أول مرة . فهذا الصرير الذى تخرجه أسنانها ، وذاك الغطيط الذى تصوغه حنجرتها ، يؤلفان حول وجهها المرعب هالة من الذعر ، أقضت مضجعى ، بعد أن أغفى

إخوتى ، وسكن الليل وهدأ الكون .

وعبثاً رحت أتستر باللحاف ، وأتجمع على نفسى ، مشدداً من عزمى ، ومبعداً عزيفها عن أذنى . فلا الغطاء ، على صفاقته ، كان يحول دون هذا النغم المطرد فى لحنه ، المنفاقم بما يبعثه فى نفسى من خوف وذعر ، ولا إرادتى ، فى استبعاد ذلك كله ، كانت تحول بينى وبين الاضطراب والسهاد .

وهذه الأشباح المتراقصة فى وجوهها الشيطانية ، وأجسادها الأسطورية ، وسحنها الوحشية ، وأزيائها الشاذة ، علام تتبعنى إلى الفضاء الضيق الذى حاصرت فيه ؟

ويبلغ الذعر منى حداً صرخت معه صرخة ملأت الفضاء ، وحسبت المنزل كله قد استيقظ على وقعها الداوى . وإذا بدادا تهب من رقادها الثقيل . فتقبل علىّ بشعرها الأجعد المشعث ، وعينيها الحمراوين الخدرتين ، ووجهها الموميائى المتنفخ . فأحسبنى مأكولا هذه المرة لا محالة !

ووجدتنى أنتصب فى سريرى كالديك يستروح ابن آوى من قريب . فأمعن فى الصراخ والولولة ، وأنا أردد كالمجنون :

— « ابعدى عنى . . ابعدى عنى ! ماما ! ماما ! »

ودادا تتقدم بخطاها الوئيدة ، غير عابئة بذعرى ، ولا محاولة تلطيف ما بى بكلمة محببة ، أو صوت مأنوس . حتى تصير على

مرمى قفزة واحدة من سريرى . ولولا أنى رأيت بصيص نور يقترب من حجرتنا ، مخترقاً ظلام الليل وظلمة روحى ، ولولا أن باب الحجرة قد انشق فدخلها مع الريح طرف من ثوب أمى الناصع البياض ، وعبق من رائحة الأمومة المنعشة ، لكنت قفزت على دادا ، وأنشبت فى عنقها أصابعى التى شعرت أنها تحولت فى تلك اللحظات إلى مخالب أصلب من مخالب النسور .

* * *

تلك ليلة لن أنساها ما حييت . فقد تركت فى جسدى ضعفاً أنهكه طيلة أسابيع ، وفى نفسى أثراً لا يمحى أبد الدهر . ولكن دادا باتت بعدها صديقتى المقربة ورفيقتى المحببة .

شاهدتها فى اليوم التالى تبكى عند سريرى ، وأنا فى بحران حمى ؛ قال الطبيب إنها حمى المصارين ، وعرفت هى أنها نار الذعر ولهيب الخوف . فقد ذاقت فى حياتها الحميات ألواناً وأشكالا ، وكان الذعر أشدها فتكاً ، وأضناها ألماً . فراحت تؤنسنى بقصص وأحاديث تسردها بلهجتها الخاصة ، وكلماتها المشوهة ، كما يشوه الأطفال كلماتهم ، فأضحك حتى أقهقه . وإخوتى من حولى يؤنسهم سرورى ، فيستأنسون بهذه المخلوقة التى حسبوها غولا ، من خلال أحاديث الناس ، فإذا بها لا تختلف عن الناس فى شىء ، وإذا هى أقرب إلى نفوسنا من سائر الخدم ،

على الرغم من سوادها وقبيح مظهرها .

وانقضت الأيام . فإذا بدادا تصبح زعيمة هذا الجيش من الأطفال ، يتزاحمون على التحبب إليها . فهذا يشترى لها قطعة من راحة الحلقوم ، وذاك يسارع إلى جلب (بصة) لنارجيلتها ، وتلك (تعبئ) لها رأساً جديداً من التنباك قبل أن يحترق (النفس) القديم ، وذلك يتنازل لها عن رغيف من حصته فى الخبز المقنن .

وإذا بهذا العالم الصغير ، الذى كان جحيما فى تنازع سكانه وانقسامهم أحزاباً تناصره، ينقلب إلى جنة ، يرضى كل من فيها عن نفسه وعن الآخرين ، ويبادر إلى مشاركتهم آلامهم وأفراحهم ، فى فيض من الحب والأيثار .

وإذا بدادا لا تردد أبداً جملتها المشهورة ، وإذا بها تستجمع صحتها رويداً رويداً ، فينتفخ خداها ويكتسى صدرها ويداها ، وتعتدل قامتها وتزول أوجاع مفاصلها ، فتنصرف إلى العمل مختارة برغبة واندفاع .

* * *

دخلت على دادا المطبخ يوماً ، فإذا بها تعمل وهى تغنى فرحة طروباً . فعاودتنى نزغة الشيطان الصبيانى ، الذى يحسه كل منا عائشاً بين جوانحه ، فمددت يدى أحاول نزع منديلها عن

رأسها . وإذا بها تغضب ، وتبدأ دعوتها . . .

— « يا رب يا عزيز . . . ! »

ثم تلفتت إلىّ ، فتكتفى بأن تبتسم لى ، كما لم أرها تفعل منذ دخلت منزلنا . بل خيل إلىّ أن أسنانها قد نبتت من جديد فى كنف تلك البسمة الناعمة ، وأن وجهها المتجهم العتيق قد انقلب وجهاً ناعماً رخصاً ، امحت من معالمه تجاعيد الهموم وآثار السنين . وقلت لها ، وأنا أضحك بدورى قافزاً كالعصفور :

— « لماذا يا دادا تذكرين الإنجليز . . . وهم أعداء الدولة؟

فنظرت دادا إلىّ ، وفى عينيها دمعة صعدت إليهما فجأة ، وفى بصرها أشباح غامت وراءها تلك الابتسامة العذبة . ثم قالت وهى تمسح مآقيها بطرف منديلها المنزاح :

— « هل تعرف قصة الرقيق الأسود والنخاسين ؟ . . . كنت طفلة فى بيت أمى وأبى . . . وجاء النخاسون يغزون قريتنا المتواضعة . . . فقتلوا أهلى . . . وبقيت وحدى. ثم قادونى ، والسياط تلعب بجسدى وأجساد الآخرين من العبيد الى مصر ، ومنها إلى هذه البلاد ، حيث باعونى إلى جد امرأة عمك. . . »

كانت دادا تقص علىّ حكايتها المحزنة ، محاولة ببسمة مصطنعة أن تخفف من تأثير الفاجعة فى نفس الولد الحساس

الذى كنته . ولكنها لم تستطع أن تنهنه الدمع الغزير الذى راح يسيل باستمرار على خديها البارزين ، يلفهما بوشاح من حنو وحنان ، فيشعان رثاء وألماً وتفجعاً .

— « . . . وبعد ذلك . . . قالوا إن الإنجليز أصدروا قانوناً يحرم تجارة الرقيق ، وبيع العبيد . . . فرحت أدعو لهم . . . فأدعو على الطغاة السفاكين ، والقتلة الجلادين . . . من كل أمة ودين ! »

ثم رفعت دادا بصرها نحو السماء ، وراحت تتمتم بكلمات لم أتبينها ، ولكنى شعرت أن هذه الضحية الضعيفة . . . أقرب إلى تلك السماء من كل قوى غشوم .

ولما أسدلت المسكينة غطاءها على رأسها المشعث ، وهى تتابع عملها ، شعرت بأنه انكشف عنى غطاءٍ آخر . . . من الأغطية التى تحجب عن عيون الناس حقائق الحياة الإنسانية ، وعن عيون المستعمرين أمانى الشعوب المتحررة .

١٩٤٣

رجل بلا قلب !

كان يشهد بنفسه إعدام المجرمين الذين يحكم عليهم بالموت ، لأن القانون يفرض ذلك على رئيس الهيئة التى تحكم بالإعدام . فى ذلك ضمانة للعدل تذكى لدى الحاكم شعوره بالتبعة الوجدانية . ولكنه لم يكن يهتم لمشهد هذا الإنسان الخاطئ المعلق على أرجوحة العقاب ، بقدر اهتمامه لما ستكتبه الصحف فى اليوم التالى ، وبعناوين بارزة ، يتوجها اسمه : «فريد بك . . . رئيس المحكمة العليا ينفذ بنفسه حكم الإعدام ! »

فقد عاش فريد بك ما عاش ينظر إلى الناس كلهم بعين الريبة ، ويحكم على من يعرفه منهم حكماً مبرماً لا سبيل إلى استئنافه أو تعديله مع الأيام ! »

أما الذين لا يعرفهم من الناس ، فهو يشك فى مقدرتهم على تبرئة أنفسهم إذا حاكمهم يوماً ، ولذا فهو يأخذهم بهذه الجريمة نفسها ، ويحكم عليهم سلفاً حكماً لا سبيل إلى إعادة النظر فيه .

فلما احيل فريد بك على المعاش ، بعد الحركة التطهيرية

الأخيرة ، انصرف إلى الاشتغال بالسياسة ، يعالجها بهذه الروح ، فى بلد يعبش أهله على تلك السياسة ، كما يعيشون على الهواء العليل والماء السلسبيل .

إلا أن « الشركة الاقتصادية الكبرى » التى تألفت عقيب الحرب ، لم تشأ أن تحرم البلاد من خبرة فريد بك ، فى الشؤون القانونية ، ولا أن تهمل استغلال اسمه فى الإعلان عن نشاطها ، فاختارته مستشاراً لها ، وكلفته إدارة فرع الطيران .

وكانت الأعمال الجارية لتشييد المطار الكبير ، بين شاطئ البحر وسفح الجبل ، قائمة على قدم وساق . فوجد فريد بك فى التحكم بمئات الموظفين الفنيين ، وآلاف العمال اليدويين ، منفذاً يخفف عنه ما أصابه ، بعد انزوائه ، من كبت الغرائز ، ومسرحاً لنشاطه الذى كاد يبلغ أوج النضج فى سنته الخامسة والأربعين .

وقد جلس فريد بك ذات يوم خلف مكتبه ، فى دار الطيران — قرب الساحة التى شهدت مصرع المئات ممن حكم عليهم بالموت ، فخيل اليه أن أصواتاً تتعالى من تلك الساحة وتناديه .

فهبّ إلى النافذة ، وأطل بنصف جسده العملاق على الشارع الفاصل بينها وبين ساحة الإعدام . فإذا ببصر فريد

بك يقع على مشهد يذهله عن تلك الاصوات ، ويبعث إلى وجهه الأصفر دفقة غزيرة من الدم ، تتشنج بعدها أطرافه : هذه هى أخته دنيا ، تسير على رصيف الشارع ، متأبطة ذراع سمير العقيبي ، الفتى الخليع ؛ ويتمتم فريد بك كأنه يشاور زميله فى المحكمة ، قبل اتخاذ القرار الأخير ، وهو يتلفت ذات اليمين وذات اليسار :

— « مجرم ! مجرم ! أليس كذلك ؟ »

ولكنه يستدرك على نفسه بقوله :

— « وهى . . . هى دنيا . . . مثال التقى ومظهر العفاف ، أتصاحب هذا الذى . . . »

ويعضّ فريد بك على شفتيه حتى ليدميهما . ولكن صمته لا يحول دون رؤيته ذلك المشهد، الذى برز فى مخيلته من وراء رِكام مشاهد مماثلة. كانت جميعها غارقة فى ظلمات اللاوعى ، وراء حدود الوجدان . مشهده هو ، يوم نشرت الصحف خبره التالى — « الأستاذ فريد . . . القاضى فى محكمة الجنح تقبض عليه الشرطة فى أحد البيوت المشبوهة عند نهر أدونيس ! »

هذا العنوان الذى نشرت الصحف تحته — خبر الجريمة ، كان وحده قصة لا ينساها فريد بك مدى الحياة .

أما التفاصيل فقد ذكرتها صحف البلد خلافاً للواقع ،

على عادتها فى نشر الأخبار . ولكنه هو يذكر الآن الحقيقة كما لو كانت ماثلة أمامه .

فقد جرد الفتيات الثلاث اللواتى كن معه من ثيابهن . . . من جميع ثيابهن . . . خلافاً لما « نشرته » الجرائد المغرضة . ثم يقول فريد بك ، وكأنه يلقى السؤال على سمير العقيبى :

— « ويحك أجئت تنتقم لأخواتك الثلاث من أختى ! »

* * *

وتسير أعمال المطار الكبير فى حدود التصاميم التى وضعت فى مؤتمر الطيران العالمى فى مونريال بكندا — ولكن حياة فريد بك لا تسير فى حدودها الطبيعية . فهذه امرأته ، وقد ظلت حتى أمس القريب تناصبه الخصومة ، تأثراً بشذوذه فى معاملتها : ما بالها تظهر له العطف وتتظاهر بالإطاعة العمياء ؟ إن هذا التطور فى سيرتها يحمل إلى قلب الزوج ، وقد جاوز الأربعين ، عاطفة لا عهد له بها من قبل . فقد اعتاد فريد بك منذ تزوج أن يعامل سلمى — زوجته على اعتبار أنها الخادمة الأولى فى المنزل — لها بالطبع حرمتها كسيدة ، تنجب الأولاد ، ولكنها لا تستطيع أن تتمتع فى بيته بأكثر من الحقوق التى يمنحها هو لمن يعيش معه .

جاءت سلمى يوم سفره الأخير إلى القاهرة تودعه فى المطار ،

فى عداد مودعيه من موظفى الطيران وعماله . فشاهد على وجهها أثراً من آثار المرح . فلما عاد من مصر بعد أسبوعين . كانت سلمى تستقبله بوجهها المشرق ، وعينيها الذكيتين . وجسدها اللاهب الأهيف ، ولكنه تعمد أن يتجاهل وجودها . حتى انتهى من مصافحة آخر مخبرى الصحف ، وإذا به وت حنون يرتفع ، تضطرب معه مخارج الحروف كأنه مشروع بكاء :

— « فريد بك شخشبون ؛ الحمد لله على السلامة ! »

ولكن « البك » الذى حكم على زوجته ، قبل السفر ، لم يشأ أن يقبل استئناف هذا الحكم ؛ فاكتفى بمبادلتها القبلة التقليدية دون عاطفة يستشعرها معاونوه، كلما شاهدوا هذه المرأة الفاتنة فى مكتبه ، أو راقصوها فى الحفلات الساهرة .

وفى السيارة التى حملت الزوجين إلى المنزل ، ترقبت سلمى أن يحدثها فريد بعد طول الغياب ، ولو بلهجته الصداعة التى تعودتها منه ، ولكنه آثر الصمت ، فأخذت هى تحدث نفسها :

— « لقد صدق السائق سليم حينما قال لى — « فى القاهرة تضيعين البقية الباقية لك من زوجك ! »

وأخذ فريد بدوره يحدث نفسه :

— « مرحها يوم سفرى ، وتقطيبها يوم عودتى ، دليلان كافيان ! »

سلمى — « هناك فى القاهرة ، النساء الروميات والفنانات الإيطاليات !

فريد — « هنا الرقص والتنس والسينما !

سلمى — « ليتنى أصررت على الذهاب معه كما نصح إلى سليم !

فريد — « ليت لى ولداً فيكفينى هذه المشكلات ! »

وكما تستدعى الكلمة ، فى واقع الحديث ، معنى جديداً — كذلك تستدعى الكلمة فى عالم الخيال حادثة جديدة . فقد تذكر فريد بكلمته الأخيرة عدداً من المشكلات أثارها فى القاهرة ، بين أعضاء الشركات التى شخص إلى العاصمة المصرية ، كي يفاوضها باسم شركته . فكان أن انتهى الأمر إلى خلق جو من الريبة والاشمئزاز ، سرعان ما انقلب إلى ثورة ، على روح الاتهام التى يعالج بها فريد بلك العلاقات القائمة بين الشركة التى يمثلها وشركات الطيران الأخرى .

وكذلك تذكر فريد بلك المشكلات التى أثارها هو نفسه فى دمشق ، يوم ذهب الى العاصمة السورية ليفاوض شركة « الطيران السورية العراقية عبر الصحراء » ، بسبيل ربط الخطوط الجوية بين البلاد العربية ، أسوة بشركات الطيران البريطانية .

فانتهت مفاوضاته هنا وهناك إلى قطيعة استحكمت بين هذه الشركات ، غذاها روح الريبة والاتهام ، وأحكمها عنف هذا الرجل فى العرض ، وصلفه فى الطلب . وشدته فى التنفيذ !

وكانت السيارة قد وصلت الى منزل فريد بك ، فترجلت منها امرأته، دون أن تنتظره، لأن فريداً لم يعودها هذه الياقات، واستدارت غضوبة لتصعد الدرج بنزق ظاهر . فى هذه اللحظة أقبلت أخت فريد ، تجر ولدها الصغير فى عربة ، وبادرت أخاها بالسؤال ، فانتبه الرجل من ذهوله الطويل :

— « قل لى يا فريد ؛ الحمد لله على السلامة أولا !

ثم هل شاهدت صهرك حبيب فى القاهرة ؟

— « بالطبع ! بالطبع ! وسيعود حبيب فى الأسبوع المقبل ! »

لفظ فريد هذه الكلمات ، وهو يصافح أخته ، ويمد رأسه ليقبلها فى جبينها ، ساعة شعر بطيف انقباض ران على ذلك الوجه الأشقر دون عذوبة ، وبخيال خيبة عرت ناظريها الزرقاوين فى غير فتنة . فثبت لفريد بهذا البرهان « الساطع » أن هذه المرأة ، كزوجته ، ليست إلا واحدة من النساء اللواتى حكم عليهن سلفاً ، منذ عهد آدم ، فتعاقبت الأيام والحوادث لتجيء له بالبرهان تلو البرهان على صدق حدسه وسابق حكمه.

* * *

فى هذه الغمرات من الشك فى كل شىء ، والارتياب من كل حادث ، واتهام كل إنسان ، كان فريد بك يقضى سحابة أيامه ، عاملا منذ مشرق الشمس حتى منتصف الليل . وكثيراً ما كان يواصل عمله ، طيلة هذه الساعات دون انقطاع أو راحة . فيكتفى من الطعام بسندويش يستحضره إلى مكتبه ؛ وبعدد من فناجين القهوة، وبكمية من الأسبرين يزدردها ، ويضيف إليها أنبوباً من دواء آخر، يعالج به داء معوياً مزمناً، أصابه كما يصيب أكثر الناس فى الشرق الأوسط .

ولم يكن فريد بك ليجد ، فى أثناء ذلك ، مجالا يتنفس فيه الصعداء أو يروّح عن أعصابه المرهقة ، سوى تلك اللحظات التى تدخل عليه فيها الآنسة إيڤا ستر ومبولى ؛ سكرتيرته الخاصة. فقد كانت فى جسدها المديد الفتى ، وعينيها الخضراوين الواسعتين ، وشعرها الأشقر الجعدى ، صورة جديدة لڤينوس كما تصورها اليونان ، فى أثواب عصرية . وهى فوق ذلك من أصل يونانى يؤمن فريد بك بأنه هو نفسه أصل أسرته التى هاجرت إلى هذه البلاد . ولم يكن على الرغم من استقباله إيڤا ، كلما دخلت عليه ، بأعذب ابتسامة يستطيع إخراجها للناس ، ليتمكن من تعود الابتسام فى وجوه معاونيه الآخرين . ولا فى وجه زوجته . فيقول الخبثاء من هؤلاء المعاونين لامرأته ، فيزيدونها

حنقاً عليه وبغضاً له :

— « إن إيڤا هى (الطعم) الذى نقدمه إلى زوجك ، قبل أية مقابلة ! ثم ندخل عليهما فنجد « البلك » . . . قد « لان » كثيراً . . . وعندئذ ينتهى كل شىء على ما يرام ! »

وتصل إلى أذنى سلمى أخبار سوء كثيرة غير هذا الخبر : فهذا يحدث الزوجة الحسناء حديث نهر أدونيس ، والفضيحة التى نشرتها الصحف فى حينها ، على أنها حادث جديد . وذاك يخبرها بأن « البلك » لا يستنكف عن الاحتفاظ ببعض الملاعق الفضية فى جيبه ، كلما دعى الى وليمة من الولائم التى يفضلها على كل حفلة سواها ! ويأتى ثالث فيحدث سلمى بأن زوجها كان فى إحدى الليالى ، فى الغرفة « الخاصة » التى استأجرها قرب ملعب التنس ، ففاجأه صديق « الفتاة » التى يصاحبها ، وأطلق عليه النار ، فأخطأه ! وأنه كثيراً ما يداعب الخادمات مداعبة لا تبيحها الآداب العامة .

هذه الأخبار ، وما تلقاه سلمى من سوء معاملة هذا الزوج ، منذ ارتضته رفيقاً فى الحياة ، لاسيداً يضطهدها ولا مستبداً يتحكم فيها ، كانت تزيد فى نكد الحياة المنزلية ، وتعكر صفو البيت الهادىء ، على الرغم من خلوه من الأولاد . بل إن هذا الحرمان كان أسوأ ما يعصف بقلب هذه المرأة الكاملة الأنوثة ، الرائعة

الجمال ، الذكية القلب ، والنبيلة الأخلاق .

* * *

وتنقضي أربع سنوات على انتهاء الحرب العالمية الثانية . فيجد فريد بك نفسه متربعاً على قمة المجد الذى حلم به ، منذ كان موظفاً منسياً حتى صار رئيساً أعلى لاتحاد شركات الطيران ، يملك الأطيان فى مصر ، والسيارات فى فلسطين ، ويستملك العقارات فى جبل لبنان . ولكن فريد بك لم يستطع أن يمتلك قلب زوجته ، ولا عواطف معاونيه ، ولا عطف الناس . كما أنه لم يتمكن من أن ينجب ولداً يرث هذه الثروة أو ينسى الناس ماضى أبيه الغشوم .

فقد ظل فى خصام مع الناس يتهمهم ويحاكمهم . حتى القضاة ، لم يكن له بينهم صديق . لأنه لا يؤمن بالعدل الذى نصبوه مكتوباً فوق رؤوسهم ، على أنه أساس الملك ! وهو لا ثقة له برجال الفكر لأنه يخاف من الحرية التى يدينون بها ، وهو يكره معاونيه لأنهم يزاحمونه حتى على اعجاب امرأته .

فهذه الرحابة الأبوية التى تملأ صدور الرجال الكبار لا تجد إلى صدره منفذاً : إنه يتبرم حتى بزواره من الزبائن وأصحاب المصالح ، فيبلغ به الغيظ منهم حداً يقيمه ويقعده ، وهو ينتفض كالديك المذبوح .

* * *

فى يوم ، اشتد المرض على فريد بك ، فعاف الطعام ، واكتفى بالقهوة والأسبيرين والدواء الآخر ، وراح يتناول هذه السموم دفعة واحدة ، فى الساعتين مرة . فلم ينقض نصف النهار حتى أحسّ الرجل باعضائه تتراخى ، وبكبده يتشنج كأنه أصيب ببرد مفاجئ . ثم غامت الدنيا فى ناظريه ، وتلألأ العرق على جبهته الناصلة . وإذا بالباب يفتح ، .فتدخل منه إيڤا ، فتانة القسمات ، يعبق العطر من حولها كهالة من طيب .

وما راع الفتاة إلا جسد فريد العملاق ، يقوم من مكانه ثم يقع منكباً على وجهه ، فوق سطح المكتب البلورى الفسيح . فتراكض إيڤا مذعورة ، وتأخذ بين ذراعيها رأس فريد بك وهى تضغط على زر الجرس ضغطاً عصبياً متواصلا . وإذا بالباب يفتح من جديد ، وإذا بسلمى تطل برأسها الصغير الحلو ، يتبعها الحاجب الوحيد الذى ظل فى المكتب حتى تلك الساعة المتأخرة من استراحة الظهيرة . فما تقع عينا الزوجة ، التى جاوزت الثلاثين ، على وجه السكرتيرة التى لم تبرح دون العشرين ، وهى تحتضن رأس زوجها بحنان ، حتى تنفجر المرأة بضحكة صفراء مرعبة . ثم تعود أدراجها لتهبط السلم التى صعدتها منذ لحظات قلقة لتأخر زوجها ، وهى أهدأ ما تكون المرأة ، تعيش فى شك من أمانة هذا الزوج حتى تقع على أسباب اليقين .

وفى الدرج تسمع سلمى جلبة تتبعها ، وأصوات ألم مكبوت خلال ذلك؛ فتلتفت وإذا فريدبك نفسه ، يهبط السلم عجلا ، ويمسك كل من الحاجب والسكرتيرة باحدى كتفيه، فيجرر ساقيه بعجز ظاهر ، وهو يجفف عن جبينه القطرات الأخيرة من عرقه البارد.

حينئذ شعرت سلمى بأن هذا «الحاكم» المستبد قد تضاءل وضعف حتى رجع إنساناً رحيما ، كهؤلاء الذين تعرفهم من الناس ، فتحبوهم من انسانيتها حناناً يتصل من القلب إلى القلب. فمدت المرأة يدها الصغيرة الدقيقة الأنامل ، المخضبة الأظافر ، وأخذت بها يد فريد، وهى تقول له برحمة ظاهرة وعتب لطيف :

— «لماذا تعامل نفسك وغيرك بهذه الشدة يا فريد ؟ »

فترقرق فى عينى الرجل دمعتان كانتا أثمن ما خرج منه ، منذ عرك الحياة ، وهو يقول لزوجته ، بعد أن اختليا فى السيارة :

— «عفوك يا سلمى ! لا تحكى علىّ بقسوة كما حكمت عليك .. . وعلى الناس ! »

فتنظر المرأة إلى هذا الرجل ، يخلقه الضعف خلقاً جديداً ، بحنو خالص ، يطفو على مقلتيها السوداوين العميقتين ، ثم تتمتم، وهى تتحول ببصرها عن وجه زوجها الشاحب الى الساحة العامة المجاورة ، ساحة الإعدام:

ـ « لقد عفوت عنك ؛ وأسأل الله أن يعفو عنك هو أيضاً ! »

وضاعت سيارة فريد بك وسط جماهير من الناس والسيارات ، تألبوا فى ذاك اليوم قرب ساحة الإعدام ، ليتفرجوا على جثة آخر مجرم نفذ فيه القضاء حكم الموت .

١٩٤٨

تجارة خاسرة

أنهى الدكتور سعيد سياحته الى أوربا ، وكان قد نجح فى الامتحانات الجامعية للحصول على درجة دكتور فى الطب ، منذ ثلاثة أشهر . فجاءت رحلته هذه تتمة لدراسته ، وفترة راحة ، استجم فيها ، من عناء تلك الدراسة الطويلة .

وما كان الدكتور سعيد ليهتم بطول الدراسة لو كان التعليم الجامعى ميسوراً . ولكن اضطراره الى بيع آخر « حصة » من الأرث الذى انتقل اليه ، من أمه وأبيه ، فى سبيل الحصول على تلك الشهادة ، حمل الدكتور على التأفف ، ولاسيما أن الجامعتين عندنا تستوفيان أجوراً باهظة ، لا طاقة للفقير وللمتوسط بتحملها .

وكان أول عمل قام به الدكتور سعيد ، فى عيادته الجديدة ، هو إحصاء الأموال التى أنفقها للحصول على هذا اللقب ، الذى طالما داعب خياله ، وتراءى له فى مسقط رأسه ، كأنه عصا جنية ، تحول أثواب « سندريلا » البالية إلى روائع من فنون الخياطة والزركشة والتطريز .

وبدأ الدكتور يسجل فى دفتره ، وهو يتمتم :

— « إذا لم نحسب مدة الدراسة الابتدائية ، لأننى قضيتها فى مدارس الحكومة المجانية ، وجب أن نحسب ما أنفقته على المعيشة ، فى المدينة ، طوال تلك السنوات . . . وليكن ذلك بمعدل خمسين ليرة فى الشهر ، أو ستمئة ليرة فى السنة الواحدة . أى ما يعادل ثلاثة آلاف ليرة فى خمس سنوات ! »

ويكتب الدكتور هذا الرقم إلى جانب ، فى الهامش الأيسر على طريقة التجار .

ثم يتابع حسابه وتمتماته :

— « أما الدراسة الثانوية . . . فقد كانت أغلى سعراً ، وأوفر تكاليف ! لننظر ؛ متى بدأتها ؟ فى السنة الأولى كانت الأجرة فى المدرسة الداخلية ، ألف ليرة . . . ثم تضاعفت فى السنوات الثلاث التى تلت . وأخيراً صارت النفقة السنوية أربعة أضعاف ما كانت عليه فى السنة الأولى ! »

وإذن فان المبالغ التى دفعتها للمدرسة الثانوية كانت ثلاثة وعشرين ألف ليرة !

ويتوقف « الحكيم » فترة طويلة ، أمام هذا الرقم ، ويتخيل ما كان بامكانه أن يشترى به ، فى قريته ، من عقارات مبنية ، أو أراض صالحة للزراعة . . . ثم يتابع إحصاء النفقات بالدقة

نفسها التي اشتهر بها ، وهو يقول :

— « والآن لنحسب تكاليف الدراسة الجامعية. سبع سنوات كل منها أكثر تكاليف من التي سبقتها ! »

ويحار الدكتور سعيد في أي معدل يعتمد لحساب هذه النفقات . أمعدل ما كان ينفقه هو ، دون إسراف ، أم ما كان ينفقه بعض رفاقه ، من أبناء الذوات ، أم ابن ذلك الموظف... المكلف شؤون المحاسبة في إحدى الشركات ، الذي ينفق مئات الليرات في سهرة واحدة ، وكأنه ينفق قروشاً معدودة .

أخيراً وجد الدكتور سعيد حلا وسطاً فارتفعت نفقات الدراسة الجامعية إلى واحد وثلاثين ألفاً وخمس مئة ليرة .

* * *

وقف الدكتور سعيد مشدوهاً أمام هذه الأرقام وتمتم :

— « أربعة وخمسون ألف وخمس مئة ليرة ! ! إنه مبلغ كبير لا يستطيع عامل ، مهما جدّ ، ولا موظف مهما اقتصد ، في طول حياته المنتجة وعرضها ، أن يجمع مثله ! ! بل لا يستطيع تاجر أن يجمع نصف هذا المبلغ ، إذا . . . كان تاجراً شريفاً . »

ثم يتصور الدكتور سعيد مقدار هذا المبلغ إذا تحول إلى

قروش ، ووزن هذه الملايين من القروش إذا كانت معدنية .
فيكاد يصاب بالذهول . لما كان من إسرافه على نفسه . . .
ولكنه مع ذلك ، يحمد الله على ما هيأه له من أسباب التعلم ؛
في بلد كثر فيه حملة الشهادات كثرة مخيفة . ويحمد الله كذلك
على أنه سبق ابن جيرانه ، الذى اكتفى باجازة الحقوق ، بينما
هو تجاوز هذه المرحلة إلى الدكتوراه .

وينبعث صوت من داخل سعيد . شبيه بصوته هو ، لو ارتفع علنياً ، يقول :

— «بقى أن نعمل الآن على استعادة هذا المبلغ من المال ؛ أضعافاً مضاعفة ! ! !

وينتفض الحكيم انتفاضة ظاهرة ، ثم يتلفت حوله كمن يطمئن إلى أن واحداً غيره لم يسمع هذا الصوت . ولما اطمأن إلى وحدته ، وانه ليس فى العيادة معه غير شهاداته التى علقها ، ضمن إطارات مذهبة ، وقف الدكتور سعيد مختالا فخوراً ، وهو يفرك يديه ، ويقول :

— « مهنتى مهنة إنسانية : ولن يكون للمادة سلطان علىّ ؛ ألم أقسم اليمين على ذلك ؟ »

وتسرى فى جسده قشعريرة الإيمان والحنان . ثم يرى جمهور الحضور ، وقد صفقوا حينما تناول الشهادة من يد مدير الجامعة ،

فيكاد يطير فرحاً ، لولا ما يفرضه الوقار على شاب مثله أعدّ ليكون « حكيما » فى نفسه ، وحكيما فى مداواته أجساد الناس ، وأرواحهم ، على حد سواء . ويعود الصوت ، الذى سمعه الدكتور منذ لحظات ، إلى القول باصرار وعناد :

— « ولكن ! هذه الألوف من الليرات التى أنفقتها ، لا يجب أن تذهب سدى ؛ وقد نسيت يا عزيزى نفقات هذه العيادة : من بدل تأجيرى ، إلى ثمن معدات ، إلى أجور ممرضات وخادمات . . . لا ، إنك تبالغ فى التمسك بانسانيتك ! »

ويغالب الدكتور نفسه ، بكبح جماح هذا الصوت ، الذى يكاد يسمعه كأنه صوت متحدث فى الهاتف . ولكن ذلك الصوت يتمرد عليه ، ويتعالى أقوى فأقوى ، وأشد إصراراً . فيسمعه الطبيب يردد :

— « دعك من اليمين ، وما أخذت به نفسك . أنت فى بلاد تجارية . . . ولك بزملائك أسوة حسنة ! »

* * *

ويخيل إلى الدكتور أن ذلك الصوت منطق فى ما يعرضه عليه ، ولا سيما حينما يرى أن رسم الزيارة الذى يفرضه زملاؤه الكبار ، على المرضى ، يساوى مكسب عامل فى أسبوع .

ثم هم لا يتورعون عن استيفاء أجور العمليات الجراحية ، سلفاً من المرضى ، قبل السماح لهم باجتياز عتبة المستشفى ، ولو كانوا فى حالة الخطر الشديد . ولكن الدكتور سعيد لم يبرح يقيم للعواطف الإنسانية وزناً ، فى علاقاته مع الناس .

فهو من فئة قليلة ، من حملة الشهادات ، الذين لا يهجرون الكتاب ، بعد حصولهم على تلك الأوراق المزركشة . وصحبته للكتاب الرفيق الأمثل ، صحبة مخلصة ، يفضلها الدكتور سعيد على ما ينصرف إليه زملاؤه وغيرهم من المثقفين ، من هوايات رخيصة . فضلا عن إهمالهم شأن المرضى إهمالا فاضحاً ، بحيث لا يسجل أحدهم نتائج فحصه ، ولا ما رتب للمريض من علاجات . فاذا راجع المريض طبيبه ، مرة ثانية ، عمد إلى سؤال المريض عما وصف له فى المرة السابقة ، كى يرتب له العلاج الجديد .

لذلك عمد الدكتور سعيد إلى اتخاذ سجل يثبت فيه ما يراه فى كل مريض ، بعد فحصه ، وما يشخصه من أمر مرضه ، وما يصفه له من علاجات ، فكان ذلك مدعاة لاطمئنان المتطببين إليه ، وشيوع صيته فى الأوساط ، التى بلغ بها الحذر من بعض الأطباء . . . حد الكفر بالطب نفسه ، والترحم على « حكيم من زمان » ، يوم كان « المزيّن » يؤدى ، بمفرده ،

وظائف الطبيب وطبيب الأسنان ، والجراح ، والختان فى وقت واحد .

وفى الواقع كان أكثر الأطباء يكتفون بما تلقنوه على مقاعد الدرس ، من ملخصات المحاضرات ، أو مطولات الكتب . وكان الدكتور سعيد يؤمن مع الفيلسوف « الفريد هويتهيد » بأن « الأرض لم تحمل قوماً أقل نفعاً من جماعة ، اقتُصرت ثقافتهم على ما لقنوه من علم. » فيحاول سعيد أن يستزيد من معلوماته ، ويركزها ، بتطبيق تلك المعلومات على الحياة ، وباستنباط الجديد ، مما يقود إليه البحث والاستقراء العلميان ، أسوة بالمثقفين ، فى الأمم المتطورة ، وبالأسلاف الذين لم يقصروا فى خدمة المدنية والحضارة .

* * *

وتنتهى السنة الأولى ، لتتبعها سنوات ، والدكتور سعيد مثابر على عمله . . . ولكن دون تلذذ به ، أوحب لهؤلاء المرضى الذين كانوا يروون له ما لقوه من زملائه من استغلال ، وما وجدوهم عليه من طمع فى جمع الأموال ، بمثل روحية البياعين المتجولين ، وبعض التجار المحتكرين . فيتأثر الدكتور سعيد بما يسمع ، وتتحرك فى نفسه النزعة الإنسانية الخيرة . ولكن وفرة

مطاليب الحياة واتساع علاقاته، وما يتطلبه ذلك من النفقات، جميع هذا كان يحمله على . . . الأخذ رويداً رويداً بالمبادئ ذاتها التى وجد عليها زملاءه .

ثم يقول لنفسه :

– « أأنا وحدى قادر على إصلاح هذه البيئة . كل الناس فيها تجار ، فكيف أكون وحدى عالماً أو إنساناً خيراً ؟ أريد أن أعيش وعلىّ أن أقبل الأشياء والأشخاص على علاتهم ! »

وتسود فى نفس الدكتور سعيد فلسفة الواقعية التى عمت ، وصارت ، حتى لدى الخاصة من المثقفين ، فلسفة الحياة .

* * *

وحينما تدفقت على الأسواق ، بعد الحرب العالمية الثانية ، أنواع الأدوية الشافية التى اكتشفها أطباء من هنا وطبيبات من هناك ، سأل أحد المرضى الدكتور سعيد ، وكان طفلا فى الثامنة من عمره :

– « لماذا يكتشف الأطباء فى بلاد الناس أدوية شافية . . . ولم يجد لى الأطباء منذ سنتين ، دواء لمرضى هذا ؟ »

فيضطرب الحكيم « الكبير » أمام هذا الطفل « الصغير » وتحمرّ وجنتاه كما لم يحدث له منذ زمن بعيد . ثم ينظر الى أمّ

الطفل وأبيه الحاضرين ، نظرة أودعها كل ما فى نفسه من معانى الخير ، ويقول للطفل الصابر المسكين :

— « يا عزيزى ! هناك يؤمن الناس بالعلم ، إيماناً صادقاً ، مثل إيمانك أنت بحب أمك وأبيك . . . أما هنا فاننا نؤمن بكل شيء ، ولكن . . . أضعف الإيمان ! ! ونتاجر بكل شيء ولكن تجارة غير رابحة ! ! »

١٩٥٠

برأته المحكمة

إن كل شبه بين أشخاص هذه التمثيلية
الخيالية والأشخاص الحقيقيين هو من قبيل
التصادف المحض .

فى مكتب المحامى الأستاذ فكرى ، غرفة بسيطة الأثاث ولكنها أنيقة ، يقوم مكتبان متقابلان ، بينهما هاتف . يدخل السيد خليل زميل الأستاذ فكرى ، فيحيي ، ساعة يدق جرس الهاتف .

خليل : مساء الخير أستاذ فكرى !

فكرى : مساءالخير خليل . . . . آلو . . . آلو (إلى خليل) كيف أنت بعد الظهر؟ (ثم للهاتف) آلو يا آنسة لا تقاطعينا ، من يتكلم ؟ آه الجهنمى بك ؟ أهلاً وسهلا بجهنم إذا كنت أنت منها ! (بتهكم مصطنع) يا سيدى البلاد كلها بانتظار كلمتك فى الموضوع ، الرئاسة جاهزة متى شئت يا . . سعادة الجهنمى ، نحن على العهد باقون وحياة رأسك يا صاحب السعادة ، مع السلامة . . . مع السلامة ؛ مع السلامة

أهلا وسهلا ! (فكرى يضع الساعة فى مكانها ، ويلتفت إلى خليل مقهقهاً ، ثم يقف ويمد له يده مصافحاً) .

فكرى : هذا غرام بك الجهنمى ، المرشح الدائم لرئاسة البلدية . . . إنه قادم إلى المكتب . . . سنقضى معه ساعة لذيذة !

خليل : (بجد) إنه حقاً من الشخصيات الجديرة بالدرس !

فكرى : هل تعرفه ؟

خليل : ومن لا يعرف الجهنمى فى طول البلاد وعرضها ؟

فكرى : (مقاطعاً وهو يضحك) إنه معروف بفروته الدافئة التى يلبسها فى حر الصيف ! !

خليل : (متابعاً) يا خسارة ، إنه رجل خارق الذكاء ، واسع الإطلاع ، موزون ما دام لا يحدثك عن نفسه ، وعن المراكز التى تليق بذاته العلية . . . . فإذا وصل إلى هذه الناحية ، أضاع صوابه ! مسكين . . . إنه مريض . . . مريض !

فكرى : مريض ، صحيح ، هذه هى الصفة التى تنطبق عليه. ومرضه عضال لا شفاء منه لأنه مرض الفردية النامية نمواً خارقاً !

خليل : إذا كان هذا مرضه فهو واحد من الناس عندنا ! ! كل فرد فينا ضحية هذه الفردية النامية نمواً يجاوز الحد المعقول . . . .

فكرى : ولكن الجهنمى فى مرضه المزمن يفوق سائر المرضى فى الكمّ وإن ماثلهم فى الكيف ، إنه فى فرديته قد بلغ أعلى قمة العُجب والغرور !

خليل : إنه فى الأصل من بيئة جد متواضعة . . . فلزمته مركبات النقص . . .

فكرى : قل بيئة جاهلة والسلام ! فالجهل فى بلادنا أساس كل علة ، إنه أساس الفقر وأساس المرض وسبب الجرائم وسائر البليات !

خليل : ولكن . . . يبدو لى أن هذه الفردية هى ضمانة عندنا أيضاً . . . ضد المبادئ الخطرة ! (يدق جرس الهاتف من جديد)

فكرى : آلو ، آلو ، نعم ، من يتكلم ؟ آه . . . هذا أنت يا موسى ؟ كيف حالك بعد سهرة الليلة البارحة ؟ هل عدت فربحت بالبوكر بعض ماخسرته فى البريدج ؟ ثم يستمع فكرى فتظهر على وجهه أمارات الاهتمام ، وهو يغمغم . . . ثم يقول :

فكرى : أنا لا أعتقد . . . هذه المؤامرة ليست جدية . . . لا يمكن أن يستولى إنسان على دولة إذا هاجم مقر البلدية فى قرية ! على كل أنا أنتظرك فى مقهى البريد . . . بعد الظهر كما تقول . . . (يعيد فكرى السماعة إلى موضعها — ساعة يدخل غلام المقهى سعيد ، يحمل صينية عليها فنجانان من القهوة ، فيقطع على فكرى حبل اضطرابه الظاهر) .

خليل : (إلى سعيد) — قدم إلى الأستاذ فكرى قهوته ، وهات لى فنجانى . . . (ثم إلى فكرى) هذه المرة القهوة على حسابى إذا شئت . (ثم بعد صمت ناله بالعدوى) حقاً إن الحالة مخيفة . . . مزعجة وقد انفلتت فردية الناس وأثرتهم من القيود ، ولكننى واثق كما قلت إن فرديتنا . . . دواء واق . . . إنها تقينا شر الانزلاق فى مهاوى المبادىء المتطرفة — الرجعية منها والتقدمية كما يقولون . . . إنها رباط يشدنا إلى الله . . . فنتجنب الجرائم . . . الاجتماعية والإجماعية !

سعيد : (متعجباً وموجهاً كلامه إلى خليل) — وأنت عرفت

أيضاً ؟

خليل : (مستفهماً) ماذا تعنى يا سعيد ؟

سعيد : امرأتى التى ماتت أمس .

فكرى : ماذا تقول ؟ امرأتك ماتت أمس ؟

سعيد : (باستخفاف) أما سمعت بالقصة يا أستاذ حتى الآن ؟

خليل : لا أبداً ، مسكينة ماذا أصابها ؟

فكرى : حقاً مسكينة ، إنها عروس صبية !

سعيد : مسكينة ؟ تقص رأسها السكينة ! !

فكرى : ماذا تقول يا سعيد ؟

سعيد : كانت واحدة خائنة . . . تخلصنا منها . . . ومن عارها !

فكرى وخليل : سعيد . . . أتدرى معنى ما تقول ؟

سعيد : وحياة شرفكم ذبحناها مثل الكلبة وانتهى الأمر ! !

(يسود المكان صمت ثقيل . . . لا تقطعه سوى موسيقى مرعبة تأتى من بعيد . . . ثم صوت جرس الهاتف يرن بعنف غير اعتيادى فيزيد فى توتر الأعصاب) .

فكرى : (إلى خليل وبضعف ظاهر كأنه ينتزع الكلمات

من فمه انتزاعاً) أستاذ خليل . . . إنه لك هذه المرة

خليل : (يقوم متثاقلا إلى الهاتف) آلو ، نعم ، من ؟ لم أفهم ؟ آه ، صحيح ، لا بد أننى سأسمع هذه القصة بالتفصيل . شهوة الناس للكلام تفوق شهوتهم للطعام ، ولكن أرجوك لا تخبر بها زوجتك لسبب بسيط هو أننى لا أريد أن تسمعها زوجتى ! (ثم بعد صمت) أنت أعرف بامرأتك وثرثرتها ، وزوجتى على وشك الوضع ، وأنا لا أؤمن بالرعب كوسيلة من وسائل التربية أو سبيل من سبل الحب ! (ثم بعد توقف) اسمع سأراك فى النادى بعد الظهر ونحل هذه المشكلة أيضاً . . . إلى اللقاء فى النادى الساعة السادسة كما تقول ، إلى اللقاء يا عزيزتى ! !

خليل : (إلى فكرى الذى لم يبرح سادراً) هذا صديقنا سليم ، أراد أن يقص على تفاصيل ما سمعناه من سعيد ؛ (ثم إلى سعيد) قل لى بربك هل أنت تمزح يا سعيد ؟ أدجاجة هى المرأة أم بطة . . . أنا لاأصدق ، أنت الشاب اللطيف . . . تذبح امرأتك ؟

سعيد : (متحمساً) وحياة رأسك يا (بك) على المسك ،

لو كانت دجاجة لما ذبحتها، لأن قلبي يحن حتى على هذه الطيور . . . ولكنها خائنة غدارة . . . فكفانا الله شرها وعارها ! !

فكرى : (وكأنه يستيقظ من حلم مزعج) وهل تأيدت خيانتها لديك ؟

سعيد : معلوم ، فاجأناها فى ميدان السباق مع عشيقها . . . (ثم مختنقاً بكلماته) آخ لو بقى فى مكانه لمزقت أحشاءه هو أولا . . .

خليل : هل تعرفه ؟ ما اسمه ؟

سعيد : (يتنهد من أعماق صدره) هل أعرفه ؟ إننى لا أعرف سواه ، ولن أعرف سواه ، ولكن « ظهره » قوى . . إنه قوى قوة تقصم الظهور ! !

فكرى : يعنى ينتسب إلى الملك ؟

سعيد : يا ليت .

خليل : إلى رئيس الوزارة إذن ؟

سعيد : يا ليت .

فكرى : إلى وزير التموين بالطبع ؟

سعيد : يا ليت .

خليل : إلى أحد الزعماء « القبضايات » ! !

سعيد : يا ليت .

فكرى : إلى مؤسسة إصدار الأوراق النقدية إذن ؟

سعيد : يا ليت

خليل : إلى شركة البترول من كل بد ! !

سعيد : يا ليت .

فكرى : إلى « السريانى » المليونير الجديد إذن ! !

سعيد : يا ليت .

فكرى وخليل : يا شيخ من يحميه إذن ؟

سعيد : (بعد تنهد عميق) أنه (زلمة) الباشا .

فكرى : ومن هو الباشا ؟

سعيد : الباشا ؟ أما تعرف الباشا ؟ إنه نصف البلاد !

خليل : والنصف الثانى ؟

سعيد : « زلمته » !

فكرى : زلمة الباشا ، الباشا وزلمته ، ما هذا الكلام المعمىّ ؟
هل أنت شاعر رمزى يا سعيد ؟

سعيد : والله رمزى بك رجل طيب ، أما الباشا . . . يارب
تجيرنا ! ! !

فكرى وخليل : (يقهقهان ، ثم يعودان فوراً إلى سابق رصانتهما
ويسأل خليل .

خليل : وغريمك أين هو الآن ؟

سعيد : فى قصر الباشا !

فكرى : ألم تقبض عليه الشرطة ؟

سعيد : لم تقبض عليه ولن تقبض عليه لأنه فى حماية الباشا !

خليل : هل أقمت الدعوى على هذا الرجل لأنه أغرى زوجتك ؟

سعيد : ما الفائدة من الدعاوى ؟ أخذنا من المرأة نصف حقنا بأيدينا ، وسنأخذ النصف الثانى من الرجل ، متى حان الوقت !!

فكرى : ولكن . . . أليس لامرأتك أهل يطالبون بدمها ؟

سعيد : أخوها شريكى فى (العملية) . . . وأمها عرفت التفاصيل من أخيها فقالت له — لو خبرتنى لذبحتها قبلك . . . تسلم يداك يا بطل !!

خليل : أم وتقول هذا القول لمن قتل ابنتها ؟

سعيد : معلوم ، الخائنة عندنا تخرج من دينها ، ومتى خرج الإنسان من دينه حل سفك دمه !!

فكرى : ولكن القانون . . .

سعيد : (مقاطعاً) أى قانون يا أستاذ ، السيف أصدق أنباء من الكتب !!

فكرى : معك حق ، فى ساحات الحرب لا فى أكناف البيوت !

سعيد : العرض أثمن شىء ، ومن ينتهكه نغسل عاره بدمه وينتهى كل شىء !!

(يقول سعيد هذا ثم يضرب يداً بيد كمن يشير إلى أن الأمر انتهى دون حاجة إلى تفلسف فى الموضوع ، ثم يخرج الشاب حاملا صينيته وفناجين القهوة ، فتسمع موسيقى موقعة على تراقص الفناجين والكؤوس ووقع الأقدام ، تنتهى إلى بعث الحزن العميق ، فى النفوس) .

المشهد الثانى

فكرى : (إلى خليل بعد فترة هدوء يسمع فى أثنائها تتمة اللحن الموسيقى الحزين) أرأيت إلى طبيعة هذا الصنف من الناس ، كم فيها من شهامة ومروءة ، ولكنها مع الأسف لم توجه التوجيه الصحيح ؟

خليل : قل إنها لم توجه أبداً ، إنهم يستبيحون قتل الخاطئة ولكنهم لا يعملون على تجنيبها الخطيئة ، ويستبيحون الإجرام الفردى ويستنكفون عن الجهاد الإجماعى

في سبيل عقيدة أو هدف قومي .

فكري : تصور أن سعيداً هذا وأمثاله قادرون على اقتراف الجرائم ، ببرودة دم وهدوء أعصاب ، في سبيل ستر جناية خلقية اطلعوا عليها صدفة ، ولكنهم لا يفكرون أبداً ، ولو فكرت لهم لا يؤمنون أبداً ، في أن العمل على صيانة الأخلاق يتطلب تضحية مستمرة من كل مواطن ، تضحية معنوية وتضحية مادية ، بسبيل إنشاء المؤسسات الاجتماعية التي تصان بها الأخلاق ، وتصان فيها الكرامة البشرية ، وتصان كذلك الشخصية الإنسانية .

خليل : حقاً أن هذه المؤسسات الاجتماعية تعوزنا في البلاد العربية كلها !

فكري : لو نظمنا أمر الصدقات والإحسان الفردي ، على نحو ملائم للظروف العصرية ، لتمكنت الجمعيات من القيام بهذه الأعمال الاجتماعية النافعة كما يفعل الناس في بلاد الناس ، في إنكلترا وأمريكا مثلا !

خليل : مصداقاً لكلامك ، عاد أمس أحد مواطنينا المغتربين بعد غياب خمسين سنة . فأخبرني ، أن أحد أغنياء المنطقة التي يعيش فيها في أمريكا ، قد خصص

عشرة بالمئة من وارداته الصافية لمعونة المؤسسات الاجتماعية . وفضلا عن ذلك فقد تبين لورثته، بعد وفاته، أنه كان يقدم فى كل شهر إسعافاً خاصاً إلى ٣٢٠ عيلة من الأسر المستورة . هذه الأسر التى ربطته إلى أربابها صلات قديمة كالرفاقة والزمالة أو الجوار، وعلم أنهم باتوا فى حالة مادية صعبة .

فكرى : هذا هو الإحسان بمعناه الإنسانى الصحيح !

خليل : وقد حدثنى أحد العائدين من إنكلترا حديث صديق له هناك، هو صاحب مزرعة يملك فيها بقرة أو أكثر، فيخصص بأحد المستشفيات العامة ما يفيض عن حاجته وحاجة أسرته من اللبن ، يقدمه إلى المرضى والمستشفين الذين لا يعرف عنهم إلا أنهم بريطانيون دون أى مقابل ، مساهمة منه فى المجهود الاجتماعى العام .

فكرى : حقاً إن بين البشر روابط إنسانية لا يمكن أن يتجاهلوها . فليت الموسرين فى بلادنا يتوجهون هذه الوجهة الخيرة ، إنهم حينئذ يقومون بواجبهم الإنسانى وبواجبهم الوطنى وبواجبهم نحو أنفسهم يا أخى ! إنهم يدفعون بذلك ، عن أنفسهم وعن

أولادهم وحفدتهم ، كثيراً من الشرور والأمراض والمفاسد !

فكرى : كم يؤلم منظر هذا الطفل المتشرد فى الشوارع والأزقة ، عارى البدن إلا من بقية ثوب مهلهل ، حافى القدمين مشعث الشعر ، قذر الوجه !

خليل : بل إن هذا المنظر مما ينفرنى من المجتمع الذى يطيق مثل هذا المنظر الذى يفتت الأكباد !

فكرى : وكم يسىء إلى سمعة البلاد انتشار الشحاذين والمتسولين فى كل شارع وعلى أبواب كل معبد ؟

خليل : والمشوهين ، والعجزة ، والمرضى ، هل يجوز لبلد راق أن يتركهم دون مأوى يعنى بهم ، أو مستشفى يجدون فيه أسباب الشفاء والراحة والصحة .

فكرى : إنك تتحسس يا خليل ما أتحسسه فكأننا نفكر بعقل واحد ، ونشعر بقلب واحد !

خليل : هذا نتيجة طبيعية للتربية التى نلنا بالاشتراك قسطاً منها ، وللمدرسة الواحدة التى وحدت فينا الشعور ووجهة النظر إلى الأمور ! !

فكرى : إننى أتمنى أن نتعاون فى هذه الناحية كما نتعاون فى العمل اليومى ، وكما تعاونا فى المدرسة .

خليل : هذا غاية ما أتمنى !

فكرى : فما قولك فى تأليف جمعية منا نحن الاثنين ؟

خليل : هذه فكرة حسنة .

فكرى : تكون أنت الرئيس وأنا . . . الأعضاء .

خليل : حسن جداً ولكن . . . يبقى أن نبحث عن أمين سر عام، وأمين صندوق وكاتب ، ثم عن . . . . مشتركين !

فكرى : وهذا هو الأهم ، وفى يقينى أن كل ثرى من اثريائنا قادر على إنشاء مؤسسة اجتماعية بمفرده ، لو وفر لهذه الغاية ما ينفقه على الكماليات وأسباب الظهور !

المشهد الثالث

يدخل فى هذا الوقت الجهنمى وكأنه أعصار هب فجأة فى الغرفة

الجهنمى : أما تزالون قاعدين هنا والبلد قائمة قاعدة للانتخابات البلدية ؟

فكرى : أهلا وسهلا بسعادة الجهنمى بك ، أهلا وسهلا بالرئيس المنتظر ؟

الجهنمى : يا أخى أنت تشك دائماً ، وفى كل شىء ، ما معنى

هذه « المنتظر » ؟ لم يبق إلا أن أقبل حتى يصدر المرسوم ، فأنا رئيس البلدية شئت أم أبيت !

خليل : ولماذا يأبى الأستاذ فكرى أن تكون رئيساً ؟ إنه يترقب هذا اليوم بفارغ الصبر ، أليس هو الذى سيكون الأمين العام لديوانك العالى ؟

الجهنمى : أنت سياسى كبير يا خليل ، أنك تستنبش ما أنوى إجراءه من تنظيمات فى دوائر البلدية ! ! طيب أنت مخير فى المنصب الذى يوافقك عندى ، اختر لنفسك ما يحلو !

فكرى : يا مولانا أنسيت أننى لم أزل هنا ؟ أنك وعدتنى أنا أيضاً بأن أختار المنصب الذى أشاء ، ألا تخشى أن يتعارض اختيارى مع اختيار صاحبى خليل فتفسد ما بيننا من ود قديم ؟

الجهنمى : لا لا ، اسمع ، أنتما منى بمنزلة عينى هاتين ، هذه عينى وهذه عينى ؛ لكن لا بد من أن أقول كلمة فيكما ، ولعلها لا تغضب فكرى !

فكرى : قل قل يا صاحب السعادة إننى مستعد لتنفيذ أوامرك دائماً وأبداً .

الجهنمى : فكرى رجل يصلح للسياسة ، لأنه صريح يقول الحق

ولو كان على نفسه . أما خليل فيصلح للإدارة لأنه . . . كذاب من الطبقة الأولى !

(الجهنمى يقهقه لنكتته ، وخليل وفكرى يجاريانه بتكلف) .

خليل : أنت تريد أن تقول العكس تماماً ، الإدارة صراحة فى العمل والاتجاه ، والسياسة كذب فى العمل والتوجيه !

الجهنمى : (إلى خليل) إنى لو كنت على رأس الحكومة لما تأخرت باصدار مرسوم بتعيينك مديراً عاماً للقضايا الزراعية فى البلدية ، وبتعيين فكرى مديراً للصحة العامة والإسعاف الاجتماعى فى المجلس البلدى .

فكرى : لماذا ؟ الأن خليل شاعر، وأنا مهندس لا اختصاص عندنا لهذه المناصب ؟

الجهنمى : الاختصاص لا فائدة منه فى الإدارة البلدية ! !

خليل : (هازئاً) بالطبع ، ولا فى السياسة الدولية !

فكرى : لأن المعرفة مصيبة فى بيئة جاهلة !

(يضحك الجميع . . . ويستأنف الجهنمى حديثه) .

الجهنمى : بقى أن نكلف رئيس البلدية بأن يستقيل فوراً !

خليل : الأفضل فى رأيى أن تستولى على الرئاسة بالقوة . . . قبل الانتخابات ، ثم تقيله بقرار تصدره أنت !

فكرى : هذا هو الحل المعقول ، لأنه لن يستقيل من تلقاء نفسه !

الجهنمى : لماذا يكابر هذا الرجل فيأبى إلا أن يقال من منصبه؟

فكرى : لأنه كسائر المترئسين يجد فى الكرسى مقعداً طرياً دافئاً !

(تدخل الكاتبة على الآلة وهى فتاة فى نحو العشرين من عمرها ، لطيفة أنيقة ، عذبة) .

خليل : وهذه نورا . . . أنها أعلم منا بموعد استقالة الرئيس !

نورا : (ضاحكة بصوت أعلى) من تعنى يا لولو؟

الجهنمى : رئيس البلدية !

نورا : أنت مجنون ؟

الجهنمى : نعم يا سيدتى ، أنا مجنون بك !

(يضحك الجميع)

فكرى : نورا آنسة وليست سيدة !

الجهنمى : لقد زدتنى جنوناً بهذا الاستدراك !

خليل : تعنى أنك اعتزمت توديع العزوبة ؟

الجهنمى : أنت خبيث ذكى تستقرئ أفكارى دائماً !

فكرى : يا سعادة الرئيس المنتظر ، لا بد لك من الزواج قبل الرئاسة (ثم إلى نورا) ومن امرأة جميلة ، إن البروتوكول يقضى بذلك !

خليل : بالطبع ، بالطبع ، وكيف تصبح رئيساً إذا لم تكن لك امرأة جميلة ؟

الجهنمى : إننى أفضل القبيحة لنفسى .

فكرى : (متصنعاً الانفعال) ماذا تقول ؟ قبيحة ؟ وهل هناك امرأة قبيحة ؟ أنت مجنون ؟

خليل : (باللهجة نفسها) لو كنتَ غير الرئيس الجهنمى لأخرجتك حالا من هذه الغرفة ، أنت تهين النساء !

الجهنمى : (معتذراً وكأنه يخاطب نورا مستشفعاً بها) أستغفر الله أنا أحترم المرأة ، فقد تزوجت مرة . . .

فكرى : إذن أنت مطلق ؟

خليل : بل أرمل !

فكرى : يا مسكين ، يامسكين ، أهى التى ماتت تخلصاً منك أم أنت الذى أمتها تخلصاً منها ؟

خليل : هل ذبحتها كما ذبح سعيد امرأته ؟

الجهنمى : ماذا تقول يا شيخ ؟ من هو سعيد ؟

فكرى : أنه زوج المرأة التى ذبحت أمس !

خليل : ذبحها زوجها وأخوها !

فكرى : ولا تنس من فضلك أن تقول بمعرفة أمها !

خليل : لأن عشيقها أغواها على حد قوله !.

الجهنمى: ماذا تقولان ؟ أنا لا أفهم لقد أصبحنا كرجال السياسة الدولية ، يقولون ما لا يدركه الناس ، فيحترمهم الناس لأنهم لا يدركون ما يقولون !

خليل : أحسنت يا سعادة الرئيس الخطير ، السياسة ضرب من الدجل . . . الدجل الرمزى أو ألعاب الحواة .

فكرى : بل أنه لون من الفلسفة الصوفية أو البيان الساحر !

نورا : (التى كانت مشغولة بإصلاح زينتها) بل هى ضرب من « الماكياج » . . . فى كل ساعة وجه جديد ولون جديد !

الجهنمى: (إلى نورا) وأنت صرت فيلسوفة حكيمة يا . . . مدموزيل ؟

فكرى : بل صارت خطراً على رجال ا لحكم !

خليل : أنا أعتقد أن المرأة أصلح من الرجال لمعالجة . . . السياسة المحلية !

الجهنمى: والسياسة الدولية . . . ألم تكن زنوبيا وكليوبطرة . . .

فكرى وخليل ونورا معاً : دعنا من المومياآت !

خليل : نحن أولاد اليوم !

فكرى : النساء اليوم هن الحاكمات فعلا ، وهن الزعيمات عملا ، وهن النائبات قولا !

خليل : ومتى كانت النساء غير ما هن عليه اليوم ؟ نحن الرجال نعيش دائماً عبيداً لهن ، منذ نولد حتى نموت ! !

نورا : عبيد ، المرأة لا تحب الرجل العبد . . .

الجهنمى : صدقت ، إنها تحب الرجل السيد . . . لأنها ضعيفة !

نورا : (بتهكم) ومن قال لك أنها ضعيفة يا سعادة الرئيس؟ جرب يا مسكين . . . جرب فمن ذاق عرف !

الجهنمى : (يكاد يذوب رقة) أنا عبدك بين يديك . . وحياة رأسك وعينيك !

خليل : الله الله ، سعادة الرئيس ينظم الأشعار . . . . يا أستاذ . الأدب محظور على رجال السياسة !

فكرى : والأدباء مخلوقات غير مرغوب فيها فى الدواوين البلدية.

خليل : لأن الأدباء لا يحترمون أنفسهم ولا يتضامنون .

نورا : (بدهاء) بل لأن قلة الأدب هى الأصل وسواها هى الفروع !

الجهنمى : يسلم هذا الفم الذى ينطق بالدر ، ما اسمك الكريم يا آنسة ؟

فكرى : (للجهنمى)عفوا أنا لم أعرفك إليها ؟

نورا : لا حاجة بنا إلى وساطتك يا أستاذ فكرى ، سعادة الرئيس معروف مشهور . . .

الجهنمى : (منتفخاً) تشرفنا يا آنسة ، (وإلى خليل هامساً) ما اسمها الصغير يا خليل بك ؟

خليل : (معلناً بصوت مسموع) حورية يا سيدى ، حو رية !

الجهنمى : من الحور العين ؟

خليل وفكرى : والولدان المخلدين !

الجهنمى : (هامساً) تبارك الله ، تبارك الخلاق العظيم . . .

نورا : ماذا تقول ؟

الجهنمى : إنى أذكر الله الخلاق القدير !

نورا : ظننتك تتغنى بالأشعار الغرامية . . . مثل جارنا بائع السوس !

الجهنمى : الشعر فى عينى يا آنستى ألا تحسين . . . ألا تشعرين . . . ألا تنظرين . . . ؟

نورا : (بضحكة مغرية) لم أفهم !

فكرى : يقول الأستاذ غرام السعادة . . . عفواً سعادة الأستاذ غرام إن لسانه تعطل عن الكلام . . .

خليل : (ينشد مقاطعاً) وتعطلت لغة الكلام . . . رحمك الله يا شوقى ، كم محام يعيش على فتات موائدك أيضاً !

فكرى : (متابعاً وهو ينشد) . . . فخاطبت عينيه فى لغة الهوى عيناك !

نورا : استح يا فكرى ، استح ، أنت رجل متزوج !

فكرى : ولذلك أنا لا أستحى !

خليل : لا حياء فى الدين !

الجهنمى : (وكأنه مأخوذ) تبارك الدين ! تبارك الله !

نورا : ألم تنته القصيدة يا سعادة الرئيس الشاعر ؟

الجهنمى : أنت قصيدة حية !

فكرى : (مقلداً صوت الجهنمى الولهان) ومعلقة ميتة !

خليل : (متابعاً) وأنشودة حالمة !

فكرى : وأغنية ناعمة !

نورا : يا ضيعة الأمل فيك يا فكرى ، يظل خليل أرفع ذوقاً منك مع أنه (فلاح) كما تقول ، أنا معلقة ميتة ؟ أنت (معلق) وستموت .

خليل : من الفلاح ، أنا ؟ أنت فلاحة وهو فلاح !

فكرى : مع الفخر والشرف يا عزيزى ، الفلاح هو أساس المجتمع البشرى ، هل تنكر ؟ ولكن على شرط بالطبع ، أن نرفع مستواه الاجتماعى بالعلم ، ونوفر له أسباب العيش الصحى !

الجهنمى : (يتابع صلاته سادراً) تبارك الفلاح . . . تبارك الله !

نورا : (إلى الجهنمى) أما انتهيت من قصيدتك بعد ؟

خليل : لقد انتهى . . . وبدأ بالهذيان ! ألم يقل فولتير يبدأ الحب من العينين وينتهى . . . بالهذيان ؟

فكرى : ما أقدرك على رواية الأكاذيب ولا مؤاخذة يا أستاذ خليل ، لو أن القانون يطال الكذابين لكنت فى السجن منذ زمن بعيد ! !

نورا : أليس محامياً مثلك ، ومن كبار رجال السياسة ، كما قال سعادة الرئيس !

خليل : من أحب قوماً حشر معهم .

نورا : (إلى خليل) هل بدأت تشعر أنت أيضاً يا لولو ؟

خليل : أنا لا أنفك عن الشعور ولا سيما إذا كنت بقربى... (ثم جاداً) لقد طالت هذه المهزلة . . . ونسينا أننا هنا لندرس قضايا الناس ، لا لنقضى الوقت فى

المزل الرخيص !

فكرى : ولماذا الدرس يا عزيزى ؟ ولا تنس أن المزاح منبه للفكر . . .

نورا : وباعث للشاهية !

الجهنمى : هل جعت يا روحى ، بإمكانى أن أدعوك إلى . . . كأس من الشاى فى النادى الأفلاطونى !

نورا : مع الشكر . . . إذا سمح الأستاذ فكرى لى بالانصراف فى هذه الساعة .

فكرى : لقد قاربت الساعة السادسة . . . بإمكانك أن تنصرفى يا آنسة . . . ولكن لا تنسى أن غدك مملوء بالأعمال المعجلة ! !

نورا : بالطبع يا أستاذ ، ولكن ليس لدى سوى دفاعك عن قتلة . . . النجار الذى ستلقيه فى الشهر المقبل ، ولائحة الدعوى الحقوقية التى يجب تقديمها فى ختام السنة .

الجهنمى : ولم العجلة إذن يا فكرى بك ؟ دعها تسترح ودعنا نستروح الجنة ! (وينصرف مع نورا)

فكرى : مع السلامة يا رئيس السعادة . . . سعادة الرئيس . . . ولكن خذ بالك من نورا . . .

الجهنمى: (متحيراً) نورا . . . حورية ، (ثم إلى نورا عند الباب) أنت نور العيون أم حورية الجنات ؟

(تنسحب نورا بغنج ودلال دون أن تجيب بسوى ابتسامة ناعمة ، والموسيقى تعزف لحناً راقصاً على وقع الأقدام التى تبتعد وفكرى يتمتم (مردداً بإيقاع موسيقى)

دعوى . . . الحقوق . . . حقوق . . . الدعوى .

واسطة ورشوة . . . هات الفلوس وخذ الدنيا . . .

خليل : (يقول بعده موقعاً أيضاً) بلا محاماة . . . بلا مرافعات . . . صارت وشوشات فى آذان القضاة ! !

(والموسيقى تعزف اللحن نفسه بوضوح ينتهى بصخب وضجيج) .

المشهد الرابع

فى المحكمة : سعيد فى قفص الاتهام . . .

الأستاذ فكرى محامى الدفاع ، الأستاذ خليل محامى الادعاء .

الحاجب يعلن : المحكمة ...

الرئيس : (يدق الجرس ويأمر جازماً) نرجو من الحضور الصمت التام ، (ثم إلى سعيد) أيها المتهم قف وقل لنا الحقيقة ، كيف قتلت زوجتك ؟

سعيد : أنا لم أقتلها يا سيدى الرئيس ، لقد وجدتها مذبوحة فى فراشها . . . فأخبرت أخاها وأمها حسب التقاليد هذا كل ما أعلمه !!

فكرى : أطلب إلى المحكمة الموقرة تكراراً جلب أخى القتيلة وأمها للاستماع إلى شهادتهما . . .

الرئيس : (بعد استشارة العضوين) المحكمة تصر على رفض الطلب !

سعيد : (علناً) وأنا مع المحكمة أرفض هذا الطلب ، (ثم إلى محاميه سراً) اتركنا يا أستاذ أخوها صار (زلمة) الوزير اليوم . . . وأمها تخدم فى بيت الباشا !

(ضحك فى الجمهور وهمس ، يضطر الرئيس إلى ترديد كلمته المعتادة)

الرئيس : أطلب إلى الجمهور الصمت التام وإلا أمرت بإخلاء القاعة (فيسود السكون)

فكرى : الدفاع يصر على تسجيل هذا الطلب فى محضر الدعوى ، وإن خالف بذلك رأى المحكمة .

الرئيس : (متابعاً . . .) فهل لدى الدفاع ما يدلى به فى الموضوع غير ذلك ؟

فكرى : يحتفظ الدفاع بحقه فى المرافعة بعد الاستماع إلى أقوال الادعاء الشخصى .

الرئيس : كانت الجلسة السابقة مخصصة للاستماع إلى الادعاء ومع ذلك هل لك ما تزيده يا أستاذ خليل ؟

خليل : لقد بينت للمحكمة الموقرة ظروف الجريمة ، وطلبت إعدام القاتل ، وإننى أصر على هذا الطلب ، وإن كنت أعلم تمام العلم أن زوج المغدورة برىء مما نسب إليه .

سعيد : (مقاطعاً) يعيش رجل المحاماة النزيه !

خليل : (متابعاً) . . . لأنه لا يعقل أن يقتل الزوج زوجته وهو فتى شهم كسعيد . . . وهى فتاة جميلة . . . كالمرحومة !

فكرى : (هامساً) أ أنت هنا لتتغزل أم لترافع ؟

خليل : (متابعاً) . . . فالغزل . . . عفواً فالقضية أصبحت واضحة تمام الوضوح — امرأة قتلت فى رابعة النهار فى فراشها ، ثم ذبحت من الوريد إلى الوريد . . . والقاتل مجهول محل الإقامة ، منذ أخذت الشرطة

تبحث عنه ، بعد أن قبضت على جثة القتيلة . . .
أما الزوج فلاعلاقة له بالموضوع ، لأنه كان فى أثناء اقتراف هذه الجريمة النكراء يعمل فى مقهى البناية — وهى البناء الذى تقيم فيه دائرة الأمن العام . فليس من المعقول والحالة هذه أن يكون الزوج بجوار الأمن العام، ثم يعتدى فى زوجته على الأمن العام! نحن لا ندين بازدواج الشخصية فى هذه البلاد الديمقراطية!

سعيد : (مقاطعاً) يسلم هذا الفم يا أستاذ خليل !

الرئيس : أطلب إلى المتهم أن لا يقاطع وكيل الادعاء !

خليل : ولكنى بصفتى وكيل الادعاء الشخصى لا بد لى من أن أتهم، وأنا أتهم القاتل بصراحة، لأن تلك الضحية المسكينة وجدت مقتولة . فلا بد أن يكون هناك قاتل امتدت يده الأثيمة إليها فسلبتها الحياة . والحياة مما كفله الدستور ، وكفل حق الإنسان فيه . ثم كرست هذا الحق عهدة الأطلسى فى الحريات الأربع . . .

فكرى : (مقاطعاً) إلفت نظر المحكمة إلى أن الادعاء قد خرج عن الموضوع . . . فالاعتداء واقع على حياة امرأة ، لا على حريتها . . .

الرئيس : الحق بجانب الدفاع وإن كان حق الحرية يساوى حق الحياة ، وكلاهما حق طبيعى !

خليل : (مسترسلا) . . . فحياة الزوجة كانت ، كما ثبت للمحكمة ، عرضة للاعتداء . . . أما المعتدى فيبقى مجهولا لأن القانون لا ينفذ إلى ظلمات الوجدان ولا يخترق جدران بعض القصور . . . ولا يطال المتنفذين الذين يحمون المجرمين فيشجعونهم على اقتراف الجنايات .

الرئيس : أطلب إلى الدفاع أن يبقى فى حدود الموضوع !

خليل : (متابعاً) هذه خلاصة دفاعى ، وإننى أرجو أن يوفق القضاء إلى العثور على القاتل بالسهولة التى عثر فيها على القتيلة !

الرئيس : الكلام للنائب العام !

النائب العام : (صراخ يتعالى شديداً فلا يفهم منه إلا كلمات.. المجرم القاتل . . . تطهير المجتمع . . . تطهير الهيئة الاجتماعية . . . السفاك الأثيم .)

ثم يهدأ النائب العام قليلا (بعد أن يبح صوته فيقول بلهجة مفهومة)

النائب العام : إننى وقد اقتنعت هيئتكم الموقرة بأن ثمة قاتلا

اقترف هذه الجريمة دون شك ولا ريب ، وثبت لمحكمتكم الجليلة بالبرهان القاطع أن هناك قتيلة ذهبت ضحية هذا الاعتداء الوحشى ، فلا مندوحة لى من أن ألقى تبعة هذه الجريمة النكراء على شخص من الناس . والشخص الوحيد الذى استطعنا أن نصل إلى القبض عليـــه هو هذا الزوج المـــاثل أمامكم فى قفص الاتهام . فانه هوالذى دبر الجريمة عن سابق تصور وتصميم ، وهو الذى نفذها فى ضحيته البريئة ، وأعمل فى صدرها وبطنها فى صباح يوم من الأيام خنجره تمزيقاً وتقطيعاً . . . هذا المجرم الماثل أمامكم ، بثوب الحمل الوديع ووجه الطفل البرىء ، يستحق عقوبة الإعدام ! نعم إنه يستحق عقوبة الإعدام على ما اقترفت يداه ، وجنت نفسه الشريرة . إننى أطلب الحكم على هذا المجرم بأقصى درجات العقوبة لا انتقاماً منه ، بل قطعاً لدابر الشر فى المجتمع وعبرة لسواه من المجرمين السفاكين !

الرئيس : (وهو يبلع ريقه) إن المحكمة وقد استوفت النظر فى هذه القضية تسأل المتهم السؤال الأخير — هل لك ما تقوله يا سعيد رشيد الكساب ؟

سعيد : يا سيدى الرئيس أنا برىء . . . والله أنا برىء ، لم أقتل زوجتى ، ولم أفكر فى قتلها قبل الحادثة .

فكرى : (مقاطعاً) إذا سمحت لى محكمتكم أن أتابع الكلام عن موكلى، الذى هدت النيابة العامة أعصابه كما ترون ، قلت لكم — إن سعيداً هذا الشاب الماثل أمامكم بتهمة القتل هو أشد وداعة من الحمل ، خلافاً لما يظنه النائب العام ، فليس من المعقول أن يلطخ يديه بدم امرأة أحبها ، وعاشرها معاشرة الأزواج مدة سنة أو تزيد .

وإذا طلبت لموكلى البراءة بعد ذلك فإننى أطلبها ، وأنا واثق من أن وجدانكم الطاهر مقتنع بما أنا مقتنع به ، والبراءة هى الأصل ، أما الإدانة فتحتاج إلى إثبات . ولما كانت محكمتكم لم تتوافر على استثبات هذه الجريمة ، ولم تتوصل إلى أى دليل على وقوعها بيد فاعل ، فقد تكون الشهيدة المأسوف عليها انتحرت إثر نوبة عصبية أصابتها (القضاة يهزون رؤوسهم علامة الاستحسان، والجمهور يهمس— انتحار . . . غير ممكن . . . الانتحار غير وارد) وقد قال موكلى وكرر القول بأن زوجته كانت

مصابة بنوع من الهستريا تعاودها شهراً بعد شهر، قبيل دخولها فى . . . الوضع الدورى الخاص بالنساء. (همس فى الحضور ولغط يضطر الرئيس إلى التنبيه بقوله المعتاد)

الرئيس : الرجاء إلى الحضور أن يحافظوا على الصمت وإلا أمرت بأخلاء القاعة حالا ! !

فكرى : (متابعاً) والجروح التى شوهدت فى جسد المرأة القتيل جروح محدثة بآلة غير حادة . . . كما ثبت للطبيب الشرعى . فقد تكون المرحومة لجأت إلى ما تيسر لها من أدوات المطبخ فانتحرت بها فى ساعة يأس من دائها النسائى الدورى !

أيها القضاة المحترمون ، إننى واثق من اكتمال روح العدالة عندكم ، ومن طهارة وجدانكم ؛ لذلك لا أطلب الرحمة لموكلى بل أطلب له البراءة كاملة غير منقوصة !

الرئيس : المحكمة تنسحب للمذاكرة . . . (يتعالى ضجيج الحضور وهمساتهم. . . وكلمات البراءة. . . الإعدام الإعدام . . . البراءة . . . الإعدام مسكينة . . . قتلها زوجها . . . قتلها أخوها . . . ذهبت ضحية رخيصة . . . . الوزير يكفل القاتل . . . . النائب

يحمى القتلة . . . رشوة . . . وشوشة ، والموسيقى تعزف لحن الانتظار ، دون أن تغطى أصوات الناس وهمساتهم) .

المشهد الخامس

الحاجب: المحكمة ، (تسمع جلبة القضاة والحضور الذين يقفون تحية للقضاة وللاستماع إلى الحكم)

الرئيس : (يتلو الحكم) باسم الشعب — ولما كان سعيد زوج المغدورة قد برهن على براءته مما نسب إليه بدليل أنه كان يدير مقهى البناية التى تقيم فيها دائرة الأمن العام !

وحيث أن القتيلة وجدت مغدورة فى منزلها ، وبآلة لا يمكن أن يستعملها رجل للفتك بزوجته فى السنة الأولى من زواجهما !

وحيث أن الأصل فى القانون هو البراءة حتى تثبت الإدانة .

وحيث أن إدانة القاتل الحقيقى لم تثبت لأن رجال الشرطة والأمن لم يعثروا عليه .

لهذه الأسباب ، حكمنا ببراءة سعيد رشيد

الكساب من التهمة الموجهة إليه ، وبإخلاء سبيله فوراً، إن لم يكن موقوفاً لسبب آخر ، حكماً وجاهياً مبرماً تلى وأفهم علناً .

سعيد : (يصرخ) يحيي العدل !

الجمهور : (ضجيج استنكار، يسمع خلاله قهقهة خليل وفكرى يهنئ إحداهما الآخر)

خليل : ألم أقل لك إن المحاماة وشوشات فى آذان القضاة ؟

فكرى : ومتى خالفتك يا عزيزى فى حكمك السائرة ؟

نورا : (من بين الحضور) وأنا أشهد على قوة « وشوشتك » يا أستاذ .

خليل : نورا . . . أهذا أنت يانور عينى ويا همسات وشوشتى .

فكرى : أنت الرسول الذى لا يخيب له رجاء !

خليل : وأنت الشفيع الذى لا يرد له دعاء !

نورا : (بصوت مغر) ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزراً مثل الشفيع الذى يأتيك عرياناً !

(وينتهى المشهد بموسيقى تبدأ صاخبة ، تواكب هرج الناس ومرجهم فى الانسحاب من المحكمة، لتنتهى الموسيقى حالمة كالنغم الشارد . . . نفوراً من عدل الأرض ! !)

١٩٤٩

تكريم

حينما ترك « سيمو شنتو » مدرسة تيمورلنك فى إحدى ممالك الصين ، كان فى مقتبل الشباب . ولكن « عطا برتو » ابن الجيران كان قد سبقه إلى ترك المدرسة ، وأخذ يلازم ساحة فى المدينة ، تتوقف فيها العربات العامة لنقل المسافرين . وسرعان ما صار ابن الجيران بعد ذلك « التمرين » ، معدوداً فى الأبطال . فهو يحسن الضرب واللكم ، كما يجيد الشتائم . لذلك تهيبه سكان المدينة ، برغم صغر سنه ، وبرغم كونه لا يحمل خنجراً ولا مسدساً . « فسطوته » تبعث الرعب فى قلوب الكبار والصغار على حد سواء .

وسيمو شنتو أشد ميلا من عطا برتو إلى هذه الحياة الطليقة من القيود ، وإلى هذا النوع من « السطوة » تنقاد له ، بعد أن يقذف الناس بسيل من الألفاظ البذيئة ، الشبيهة فى معانيها بالأغانى التى يرددونها فى الراديو ، ليطربوا الناس من وقت إلى آخر ! ! !

وسرعان ما انقلب سيمو شنتو « بعبع » الساحة ، يخرس

وجوده عطا برتو . . . وسائر « القبضايات » المسيطرين على الموقف قبله ، والذين كانوا يتقاضون من السواقين ، ومن أصحاب العربات الخاصة ، جعالة شبيهة بضرائب البلدية ، لا يستسيغها المكلفون ، ولا يدرون وجوه إنفاقها .

* * *

مضت سنوات على ذلك اليوم الذى غادر فيه سيمو شنتو المدرسة الإمبراطورية لغير رجعة ، وهو لا يذكر أنه ودع رفاقه كما يفعل غيره من الأولاد العاطفيين . ولكنه يذكر تماماً وجه المعلم « ليوتسو » ، وما ارتسم على تقاطيعه من انطباعات الألم ، حينما أدرك أن أحد تلامذته الأذكياء لن يعود .

ويتوقف سيمو شنتو عند باب المدرسة ، يده فى يد المعلم الذى لم يصافحه قبل يومه هذا ، وتترقرق الدمعة فى عينيه الرماديتين . فيخيل للمعلم ليوتسو أن اعتداد هذا الولد « المخيف » وشدته قد تلاشيا أمام العاطفة الصادقة الحنون ، وأن ذاك الذئب الغضوب قد انقلب حملا وديعاً . فيشد المعلم على اليد الصغيرة الصلبة ويقول لسيمو شنتو :

— « اذكر كلما غضبت يا عزيزى أنك إنسان . . . وأن الناس بشر مثلك ! هكذا علمنا بوذا ، وعلينا أن نحقق ذلك

العلم فى أنفسنا ! ! »

فيتمتم سيمو شنتو كلمات غير مفهومة ، وهو ينسحب من الباب ،مرفوع الرأس على غير عادة البوذيين ، وعيناه عالقتان بالأفق البعيد ، عند ذلك المستقبل الذى تراءى له من خلال أحاديث عطا برتو ، وسطوة ابن عمه ، وزعامة كل قوى بطاش ، فى بلد لا حق فيه لغير القوة ، ولا وجاهة لغير المال .

* * *

لم يكن سيمو شنتو قد أتمّ السابعة عشرة من عمره ، حينما اختلف مع أحد الحمالين فى الساحة الكبرى ، أمام قصر الإمبراطور ، اختلافاً اشتد وتأزم ، وجمع حول المتنازعين سائر أهل الساحة ، فضلاً عن المارين من محبي الاستطلاع . ولما ابتعد الجندى الإمبراطورى الموجود هناك ، إلى مسافة كافية ، تجنباً للأخطار ، وجد سيمو شنتو نفسه ينتضى سكيناً حاداً ، ثم يغمده فى بطن الحمال الذى تجرأ على شتمه !

وقد حسب سيمو شنتو أن أحداً لن يزوره فى السجن ، حيث قضى ليلته الأولى ، عقيب استسلامه بعد أسبوع من وقوع الحادث المؤسف .

ولكن ما كان أشد دهشته ، حينما وجد المتزاحمين على

زيارته من الكبراء ، والمستفسرين عن راحته من العظماء ، يفوقون وزناً جميع الذين استنكروا فعلته الشنعاء من عامة الناس . فهذا زعيم كبير يبادر إلى إرسال الأموال والسجاير والأفيون إلى « السجين » العزيز ، وذاك سياسى خطير يزوره فى سجنه ليعرض عليه معونته ووساطته . وذلك متمول عظيم يسارع إلى كسب ود القبضاى الناشئ ، توطئة للانتخابات القادمة ، التى تعود الناس أن يروا أمثال سيمو شنتو يقومون بها ويوجهونها بالقوة تارة ، وبالإغراء تارة أخرى .

وكانت أم سيمو شنتو أقل الناس حزناً على ولدها ، بما أصابه من تعذيب وقصر حرية . فلما قضت المحكمة ، بعد أربعة أشهر ، ببراءته ، لصغر سنه ، ولموقفه المشروع فى الدفاع عن النفس وعن الكرامة ، كما أفتى بذلك قاضى المدينة ، كانت هذه الأم أشد الناس حزناً ، لسرعة الإفراج عن وحيدها الخطر . وقد سمعتها أم عطا برتو ، تتمتم بين زغرودتين من زغاريدها : « يا رب نجنا من شر هذا الصبى ! »

فى الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين ، بتوقيت الشرق الأقصى ، كانت أبواب السجن الرهيب تنفتح ويخرج منها شاب نحيل ، ضئيل الجسم ، زادته الجريمة اعتداداً . فما مشى خطوات نحو باحة السجن الخارجية التى تحيط بها صخور

شاهقة ، تبدو فى مثل هذه الساعة من نهايات النهار ، فى حمرة القرميد القاتمة ، حتى وجد سيمو شنتو نفسه محاطاً بالعشرات من الرجال والعربات وجياد الخيل المطهمة . . . فما بهره نور الشمس البرتقالى الذى ينعكس على الصخر الأملس ، ولا شدهته حرارة هذا الاستقبال الحافل بالكبراء والوجهاء والقبضايات . وإذا ببعض المستقبلين يحملون البطل « الجديد » إلى أفخم عربة ، ثم يشيعونه إلى منزله ، فى موكب من العربات ورؤوس الخيل ، يصعب تعدادها ، ويعز نظيره .

وماهى إلا دقائق حتى هبّ الناس من منازلهم إلى الشرفات ، ومن مقاهيهم إلى الأرصفة ، يحتشدون بأثوابهم الفضفاضة المزركشة ، كى يستطلعوا الخبر ويعلموا واقع الأمر .

فيقول بعض الناس لبعض :

— هذا رئيس الوزارة . . . وحرسه الخاص !

ويجيب آخرون يصححون الخبر :

— لا بل هذا زعيم التركمان . . . وجماعته من المتطوعين !

ويقول غيرهم لغيرهم :

— هل رأيتموه ما أجمله ، إنه أمير من . . . بلاد النفط والذهب ونساء الحريم ، ومعه حاشيته !

ويقول قوم آخرون :

— بل هذا « رئيس عصابة » من شيكاغو ومعه أتباعه اللصوص !

وما هى إلا لحظات ، ترتفع فيها زغاريد النساء ، حتى تنفجر المدينة بكاملها باروداً وناراً ودخاناً . فيخيل إلى سكان المدن المجاورة أن ثورة قد نشبت فى مدينة تيمورلنك ، أو أن عدواً فاجأها بهجوم صاعق ، فدخلت قواتها مع الغادرين بحرب كلية شاملة . ويتفق رجال الأمن على القول فى تقاريرهم الرسمية « ما رأينا وما سمعنا ! »

* * *

وكان المعلم ليوتسو هو الشخص الوحيد الذى رأى وسمع ، وحاول القيام بعمل إيجابى !

فما أصبح الصباح ، ولاح بنوره الوضاح ، وخف دوى المفرقعات ، حتى غادر ليوتسو منزله وطرق باب سيمو شنتو ، فإذا به لم يغمض له جفن ، هو الآخر ؛ لأنه سهر الليل بطوله مع ضيوفه ، ومهنئيه من مختلف طبقات الأمة . فهب يفتح بنفسه الباب للطارق ، ويشيع آخر ضيف كان عنده .

فما وقعت عينا المعلم ليوتسو ، على ذلك الضيف . . . حتى صعق وانعقد لسانه . فلقد وجد نفسه وجهاً لوجه أمام نائب الإمبراطور ، الذى حاول مراراً أن يحظى هو بمقابلته ، فلم يتح له

هذا الشرف الرفيع !

وما عاد إلى المعلم وعيه إلا حينما جلس سيمو شنتو بين يديه ، يناديه وهو يداعبه :

— « يا معلمى ! نحن لا ننسى فضلك ! أهلا وسهلا ! شرفتنا وآنستنا ! »

ويحاول ليوتسو أن يركز فكره على الغرض من زيارته ، فيقول لسيمو شنتو مباسطاً :

— « ولكنك نسيت نصائحى يا سيمو شنتو ! » فيجيب الفتى بحزم وعناد :

— « أبداً ؛ نحن تربيتك يا معلم ؛ ونصائحك لا ننساها ؛ ولكن للظروف أحكام ! »

ثم بعد صمت وجيز ، يقول الفتى ، وهو يدخن سيجاراً خيل للمعلم أن فيه كثيراً من حشيشة الكيف :

— « هل تذكر ما قلته لنا يوم ذهبنا مع الرفاق ، فى نزهة إلى النهر المقدس ، وبدأنا نأكل الخس . . . ؟ »

فيقول المعلم ليوتسو حالماً :

— « ماذا قلت لكم ؟ إننى صرت أنسى التفاصيل ! »

— « قلت . . . لا تقشروا الخس . . . كلوا العزوق بأوراقها ! هكذا قال بوذا لأن الفائدة فى الأوراق !

ويجيب المعلم مسروراً :

— « صحيح ! صحيح ! لقد قلت لكم ذلك ! أنني أذكره تماماً ! »

ويتابع الفتى كلامه :

— « أرأيت أنني ما نسيت نصائحك ؟ لقد كنت حتى فى السجن أذكر هذه النصائح ، وأعمل بها . . . »

فتنفرج شفتا ليوتسو عن مشروع ابتسامة ساخرة ، ويقول متلعثماً :

— « بورك فيك يا ولدى ! بورك فيك ! »

ثم يقول بصوته العادى ، وقد أيقظه الواقع من سباته وأحلامه المثالية :

— « أحسنت يا ابنى ، أحسنت ! هكذا هكذا يكون الوفاء ! »

ويهم ليوتسو بالانصراف ، فيشيعه سيمو شنتو حتى أعلى الدرج ، ويردد له كلمات لم يتبينها المربى وهو فى شبه بحران مما يراه من تعارض بين مثاليته التى عايشها ، وحاول أن يحببها إلى الناس ، وبين واقعية هؤلاء الناس الذين يأخذون من تلك القيم بمقدار حاجتهم للوصول إلى أغراضهم ومصالحهم .

وقد عاد إلى ليوتسو كامل وعيه ، حينما دعاه سيمو شنتو

لتوصيله فى سيارة « الكاديلاك » الفاخرة . . . التى أهداها إليه « نائب الإمبراطور » ، على سبيل التكريم . فاعتذر ليوتسو شاكراً ، وآثر أن يتابع سيره على قدميه ، كما كان يفعل منذ خمسين سنة ، قضاها يربى الأطفال ويعد الرجال ، فلا يجد من يكرمه بغير معسول الكلام .

١٩٥٠

الجديد فى المحفوظات العربية

أربعة أجزاء

تأليف

لجنة من أساتذة البلاد العربية

طبعة جديدة معدلة مزينة بالرسوم الملونة تقدم للطالب فى مختلف مراحل التعليم الابتدائى والإعدادى والثانوى مجموعة منتخبة من الشعر والنثر تزوده بثروة وافرة من الفصحى وتصقل ملكاته وترهف فيه الإحساس والشعور .

دار المعارف بمصر

